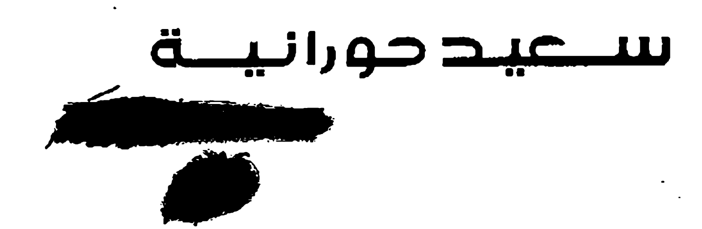
شتاء قاس آخر

قصص

سعيد حورانية





سعيد حورانية

قصص

شتاء قاس آخر

دار الفارابي

١٩٧٩

دار الفارابي - ص.ب. : ٣١٨١ - بيروت

الطبعة الأولى ١٩٦٤

الطبعة الثانية ١٩٧٩

لوحات المجموعة للفنانين : فاتح المدرس

: ميشيل المير

: ابراهيم هزيمة

: الدكتور سلمان قطاية

إليك يا حنا مينة

يا من فهمت ماهية الضعف البشري

والقوة الانسانية . . .

إليك يا صديقي . . .

اقدم هذه القصص

[signature]

أخي القارئ

هذه القصص جزء من عمري ، ومن عمر وطني سوريا ، كنت أحب لها أن تصل إلى يدك .. منذ زمن طويل !! ولكن الظروف البائسة التي عاشها الوطن ، سنوات عجافاً ظالمة ، والتي طحنتنا رحاها ، فلم تزدنا التجربة إلا إيماناً بشعبنا العظيم ، لم تتح لها أن تظهر .

وبعد .. كم أكره المقدمات !! وكم أعدها نافلة !! إنها لعبة ساذجة من الكاتب لخداع القارئ ، أما وجدان الكاتب الحر ، بدون قناع أو برقع .. فهو في انتاجه .

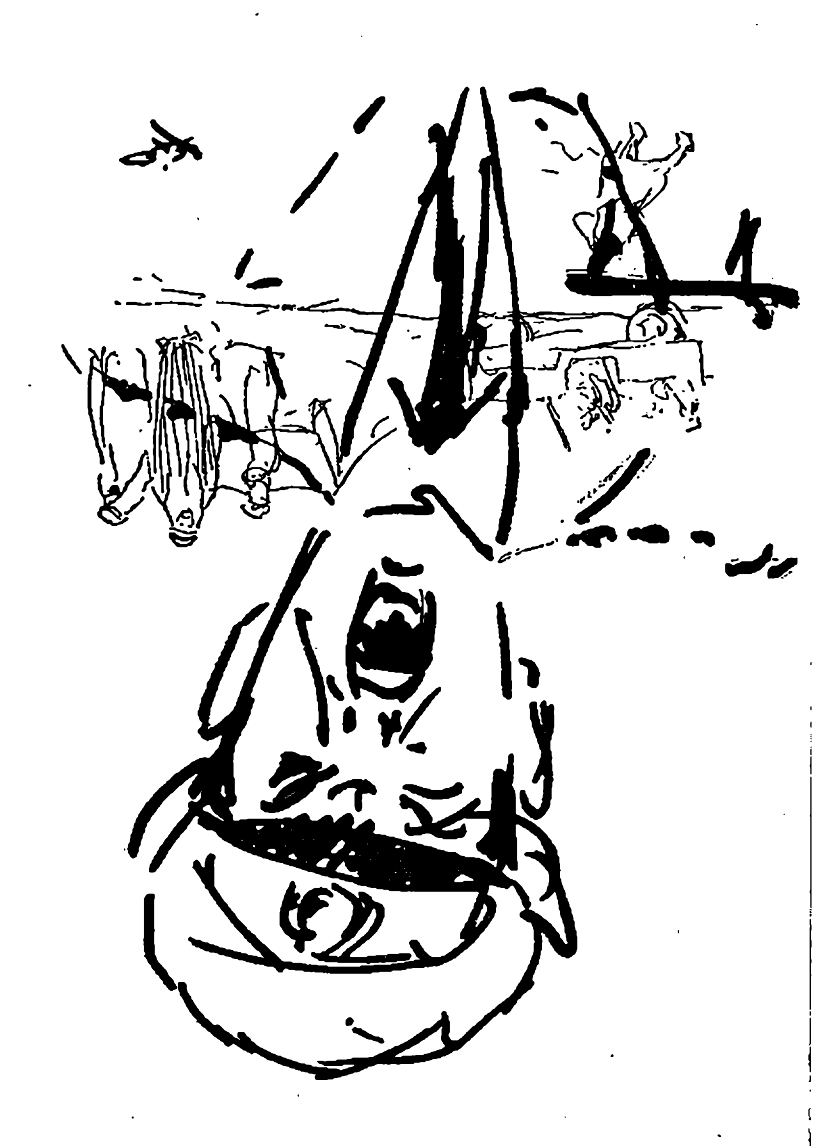
والآن .. لنبدأ القراءة .

(س . ح)

... وأنقذنا هيبة الحكومة

« قد تكون مصلحتكم في أن تكونوا
أسيادنا ...
ولكن كيف يمكن أن تكون مصلحتنا
في أن نكون عبيدكم ؟ ... »

[توكيد يدس]
(الكتاب الخامس)



ــ مين هو ؟

ــ والله ما اعرف حظرة الريّس .. آخ .. وحياة الانبياء ما اعرف ! !

ــ اسمه ؟

ــ ما اعرف !

ــ شد البارودة ياشقير على رجليــه ، وهات غير هذه الخيزرانة .

واحكم شقير سير البارودة على القدمين الوسختين المشققتين كاخفاف الجمل ، حتى سمعنـا صوت الجلد ، وهو يزقزق على الكاحلين المسلوخين .

ــ سألعن والدك .. سوف اقطعك تقطيعاً .. قل ..

ــ ما اعرف !

ــ اسمه اقول لك !

ــ ما اعرف .. وحياة كل الاولياء ! !

ــ شمّري ؟

ـ ... آخ ..

ـ جبوري ؟

ـ . . . .

ـ من طي ؟

ـ بقّاري ؟

ـ ... آخ ها ها ويا ويلم .. ها ها و ..

ـ شرابي ؟

ـ . . . .

ـ عدواني ؟

ـ عدواني ! !

ـ ماذا ؟

ـ يقولون عدواني حظرة الريس .

ووقفت الخيزرانة قليلاً في شك ، ومسح الرئيس العرق المتصبب على جبينه ، وحدق فينا . . كان الجنود ينظرون الى المشهد بدون اكتراث . . اما نحن الضباط الجدد ، فقد كان على وجوهنا تعبير لا يمكن وصفه ..

كان الجو خانقاً محبلاً بالامطار والصمت . . ليس من شيء يتحرك ، سوى البدوي الذي كان يقوم ويقعد معتمداً على يديه. ورجلاه معلقتان بالبارودة .. لم يحاول حتى التأوه . . كنا جميعاً نقف وكأننا امام حدث جليل . . شخص يموت مثلاً . . انتظار وقوع كارثة يصعب تصور نتائجها .. اطرقت الى الارض

وانا لا ادري اي نوع من الخجل يزحف على صدري ويرهقني ..
انا لم ار في حياتي رجلاً كاملاً ذا لحية وهيبة وعباءة ، يضرب
امامي كالصبيان .

وعندما كنت طفلاً في المدرسة كنت اتساءل : هل يستطيع
المعلم ان يضرب ابي ؟ وأتساءل ايضاً : لو ان احداً ضرب أبي
فماذا يحصل ؟ ولكن عقلي كان دوماً يقف عند هذا الحد متصوراً
استحالة ذلك . . لعلها تقوم ثورة في الحارة لان شيخاً مسناً مثل
أبي يجب ان لا يضرب ، والا اختل نظام الكون ، ولم يدر احد
بعد ذلك إلام يسوق نظام الدنيا .

نظر الرئيس الى عيوننا وخيل الي انه ارتبك قليلاً ، وابتسم
لي بسمة لم تتعد بعض وجهه ، ثم عبس سائلا البدوي وهو
يرمش بعينيه في هدوء ...

ـ من أي عشيرة انت ؟

ورد البدوي دون ان يكتسب وجهه أي تعبير :

ـ بقاري ! !

وهززنا رؤوسنا جميعاً .. فنحن نعرف عداوة العشيرتين ..

لا شك ان الرجل يكذب .

وانفجر الرئيس في دهشة وغضب .

ـ لعنة الله على هذا الجنس ، هل رأيتم في حياتكم مثل هذا؟

واندفع يضربه في عنف .

ـ تقول عدواني يا ول ؟ المنطقة ليست منطقة عدوان ايه ؟

.. طيب قل اسمه !!

ـ ما اعرف !

ـ شد يا شقير .. قل اسمه .

ـ ما اعرف

وادركنا تماماً انه لا فائدة من ضربه كمن سبقه .

ـ القحه بالسجن .. وهات غيره . . ايوه هاالشايب شيبة التيس . . تعال لنرى . . مين هو ؟ قل قبل ان تضرب كغيرك .. احفظ شرفك .

ـ ما اعرف

ـ شمَّري ؟

ـ شمَّري !

ـ من أي عشيرة أنت ؟

ـ شرابي !!

ـ يا لك من كلب . . انت تراوغ كثعلب . . شد يـا شقير . .

اخذ الرئيس التعب ، فسلم الخيزرانة الى بعض الجنود ، بينما قعد يستريح من عناء المهمة الشاقة ..

سارية العلم الخشبية طقطقت وارتجف الحرير المتهدل لدى أول نسمة .. وجوه كثيرة تتالت على الارض ، سمراء كالتراب ، قاسية عيونها السود البراقة . . ولكنها لم تتأوه ولم تدمع عيونها . . كم شعرت في تلك اللحظة بالتبلد ، فهذا البدوي الذي يتلوى كدودة تحت ضربات حقيرة . . هو نفسه ملك الصحراء .. هو

نفسه الذي يقف على فرسه أو جمله شامخاً ابياً كسنديانة عتيقة .. بارودته على كتفه كأنها جزء منه . . هـو نفسه الذي تنتقي كلماتك وانت تحدثه، فرصاصه أسرع من غضبه .

وجوه كثيرة تتالت ، منها وجوه نساء تتدلى جدائلهن في بؤس لتلم غبار الارض .. ولكن اياً منها لم يفتح فاه بالسر . السر الذي بدا لنا على تفاهته ابعد مـن نصر عسكري صعب التحقيق ... ووقعت الخيزرانة في ذلة جبـان مستأسد ، ثم ارتخت وأقعت بعد ان شبعت من الدم .. كما تشبع الضباع من بقايا فريسة سبع . . وخرجنا جميعاً من الثكنة مقهورين .

كان يجب ان ننقذ هيبة الحكومة بأي ثمن ! ! فالحادثة انتشرت في الحسكة وضواحيها . وتحدث بها عربان مـن القامشلي ، وتهامس بها الشركس على الاسطحة. ونقل مسافر من دير الزور ان الدرك يتندرون بها انتقاماً للقصص المضحكة عن رشواتهم وجبنهم في الصحراء ، تلك القصص التي يتداولهـا الضباط والمدنيون على السواء .

بل ان احد موظفي البريد ، المشهود لهم بالكفاءة والنشاط والاطلاع على اسرار البلدة من خلال مكاتيبها ، نقل لنـا ان رسائل عديدة ــ فتحها بطريق الصدفة البحتـة ــ اشارت الى هذه الحادثة ، وستسمع دمشق كلها بها فيما اذا وصلت الرسائل . وقد يسمع بها رئيس الجمهورية الشيشكلي نفسه ، وهو لن يرضى كعسكري سابق ان يهان هذا السلك .. وموظف البريد ، لدواع

وطنية صرفة ، يخبرنا بهذه الحقيقة ، ويخبرنا ايضاً ، انــه اجاز لنفسه في غفلةمن مدير البريد الذي كان يحتفل بعيدميلاده بسيا نس بوكر مع رفاقه في غرفة الادارة، ان يشطب السطور التي تعرضت للقضية من قريب او بعيد، بل انه - لدواع اشد وطنية من سابقتها - كتب بخطه ، سواء في الرسائل التي تعرضت او التي لم تتعرض للقضية ، ما ينفي صحة هذه الحادثة .

نعم لقد كان الموقف سيئاً جداً على ما يبدو .

قال لي الرئيس بلهجة تجمع بين المزاح والضيق :

- من الخير لك بدل ان تتبلد على هذا الشكل ، ان تشعر بأهمية الحادثة ، وان تبادر الى فهم عقليـــة المنطقة . (وأشار الى البارودة) عليك بهذه ، فانها الدواء لكل رأس يرتفع هنا .

ولكن ما هي هذه الحادثة التي استدعت كل هـــذه الطنة والرنة . ؟

كنا قبل يومين في جولة توزيع الرواتب العائدة للسرية . . ومعنى ذلك ان نقطع حوالي الف كيلو متر من مخفر الى مخفر فحدود سريتنا متسعة جداً . . فتنتني الرحلة فقد كان الشروق والغروب ساحرين للغاية ، وكانت عصائب الغزلان تنفر من هدير سياراتنا قافزة في الهواء كالسمك الطائر مثيرة الغبار ورفوف القطا وجموع الزرازير . كان العريف شقير يقود سيارة البيك آب الحربي الرمادي الذي كان يلهث بعناء في الطريق المغبرة المخددة

حيث تأخذ السيارة حريتها يميناً وشمالاً ، وحيث لا طريق محدد سوى رأي الدليل الصامت الغارق رأسه في عقاله المخطط الأحمر، وكان في السيارة الرئيس وضابط خرج من الصف ، لا يكاد يصدق ان نجمة قد تسلقت كتفه ، فهولا يني من التطلع الى كتافتيه الصفراوين في سعادة فائقة . اما انا وأربعة جنود ، فقد كنا نتبعهم متلاصقين تقريباً في (جيب) حربي مخلع قاسى الاهوال خلال عمره المديد ، فآلاته تصر كأنها الجنادب المتراقصة على ضوء الغروب الجليل الذي يطالعنا .

كان جنودي يتحدثون ، دون ان يعيروني التفاتاً كبيراً ، فقد كنت أهوم من التعب .

قال اسماعيل ، وهو جندي قديم اسمر الوجه مجرب يلثغ في كلامه :

ـ اتعرف يا ابو الدرزي ؟! ياله من خروف فخم .

فرد ابو الدرزي ، وهو زنجي شديد البأس يسكر دوماً ويقضي اكثر لياليه في سجن الثكنة :

ـ مدبرين نفسهم .. مخفر الزيدي مليء بذوات القرون .

ـ اتعرف ؟ اتمنى ان اكون في المخافر .. قدمت طلباً ولكنه رفض .

فرد الجندي الثالث ، وهو متطوع حديث يتكلم دائماً بحماسة ويبدأ حديثه احياناً بجملة (وشرف النبي)

ـ وشرف النبي ، اصبح كل رقباء وعرفاء المخافر من تجار

الاغنام ! !

اما الجندي الرابع فقد كان يراقب الطريق في سهوم دون ان يشترك في الحديث .

ـ المخافر عيني .. عز وجاه .. لا شغلة ولا عملة . . جرت حادثة ؟. تنظم ضبطاً . وفي المساء يأتي بعض الزوار ، ومعهم ذوات القرون . وأشياء أخرى ، وعند ما عينت في مخفر غونة كنت لااستطيع النوم من الثغاء

ـ انهم يبعدونني دوماً عن المخافر ، يا ابو الدرزي لاتسكر!! يا ابو الدرزي لا تهين الدرك ! ! آه على ايام المخـــافر يا اسماعيل ..

كنت ارفض ان افطر الا بديك مقـــلي ؛ والغدا كبش ، والعشا خصاوي وكبد وقلب وخلافه .. وكانت سوداية العرق دوما بجانبي . وام الدرزي تزورني كل اسبوع . . فطقطق الجندي الثالث بلسانه .

ـ وشرف النبي سمعت انك خبصت مع النسوان .

ـ بعض الشرابيات .

ـ وشرف النبي وسخات

ـ بهيم .. تيس .. الشرابيات يغتسلن كل يوم في الشتاء .. اما في الصيف فسامحنا شوي بالنظافة .. على كل حال الشغل مش هنا..النز ما فيه صيدنسوان.العربيات صعبات وتدخل الجندي الرابع فجأة . :

ــ سيدي الملازم مش هذا طريق الحسكة . !
ــ تظن ؟
ــ متأكد ! !
ونظر ابو الدرزي بعد ان مسح الزجاج القذر .
ــ العمى .. اظن انه طريق راس العين ..
وفي نفس اللحظة وقفت سيارة الرئيس وترجل منها الرئيس والملازم وشقير والدليل ..

قال الرئيس باقتضاب : ــ اظن اننا ضللنا الطريق ! !
فاجاب الدليل ــ لقد تركتموني انام قليلا .. (تثاءب) اسمع عواء كلب ..

تقدمنا كلنا نحو الصوت الذي ينبعث من وراء هضبة ممرعة ، فراينا كلبا اسود ينبحنا بعصبية ، وعلى بعد مئة متر كان راع مع عدد وافر من الغنم ينظر الينا بثبات ، وجفته على كتفه .
وصرخ شقير وهو يلوح بيديه .

ــ ياولد .. ياولد .... تعال هنا ..
ولكن الراعي لم يتحرك خطوة واحدة بل تابع النظر الينا في ثباته السابق .
ــ لك ياول يا رذيل يا مذّبن يا شرشي .. اقول لك تعال هنا .
ومشى شقير خمس خطوات في اتجاهه .
ولكن الراعي اكفهر وجهه ، وانزل جفته بسرعة من على

كتفه وامسكه بين يده .

قال الرئيس باستغراب :

ـ هل هو مجنون ؟ ثم صاح : نريد ان نسألك عن الطريق .

وورد الينا صوته ضعيفاً نحيفاً ولكنه غاضب . :

ـ ما اعرف !!

ـ ليك الكلب ليك .. قالها شقير وهو يبصق ويتقدم نحوه مهددا ، ولكن رد الفعل كان سريعاً اذ ان طلقة ضخمة انطلقت من عين الجفت نحونا ، وتناثر خردقها الكبير نمرة صفر الغزلاني واصاب زجاج السيارة ، فكسره ويد شقير فجرحها .

وجرينا جميعا نحو السيارة ، وامسكنا ببنادقنا اما الرئيس فقد وضع مشط رشيشه (الساموبال)فيه ، بينما كان شقير يصرخ .

ـ يلعن سنسفيل جده ، والله لاعمل جسمه مصفاة .. ليك الكلب ابن الكلب .. العمى .. (ومسح يده الدامية)والله لألعن اللي قامت عنه ..

جمع الكلب الاسود الغنم في سرعة البرق حول الزاعي وغاب بينهاوانبطح الراعي بين رعاياه ثم وافانا بالطلقة الثانية ، فاضطررنا الى الاحتراس ، فالخردق كبير كالرصاص ، ثم وقف بعد ان عبأ فشكتين اخريين ينتظر رد الفعل في احتقار عجيب .

ورفع شقير الهداف الممتاز بارودته مستهدفـــا صدره ضمن شعيرته الدقيقـــة

ولكن الرئيس ضرب بيده :

ـ اتركه .. يجب ان نفهم لماذا يضربنا بالجفت !!
وصدرت من جهة الراعي طلقة اخرى فتحمس الرئيس ورفع الساموبال واستهدف الراعي طويلا ولكنه لم يطلق.
وصرخ ابو الدرزي غاضبا .

ـ نسل زنا ، ياسيدي عوّرنا دعنا نضرب !!
وكان المساء يهبط ثقيلا ، والراعي الاسود يكاد لايظهر من خلال الغنم المتفرق الذي ارعبه صوت الطلقات فملأ الجو بالثغاء الفاجع .

ورفع الرئيس رشيشه مرة اخرى . وانتظرنا حوالي دقيقة ، ولكنه لم يطلق ودوت طلقة اخرى من الراعي ، وتناثرت خرادقها بين اقدامنا ، ثم رفع راسه قليلاً كانت عيناه تشتعلان في الظلام بحقد اخرس ثقيل احسسنا جميعا بنظراته في قلوبنا .. كان رهيبا اسود غامضا ، هز راسه في اتجاهنا مهدداً ، ثم حرك فمه بنداء خاص ـ فتراكضت الغنم واجتمعت عليه فاختفى بين هذا البحر الصوفي .

وعند ذلك اطلق الرئيس رشيشه بين الغنم في المكان نفسه الذي اختفى فيه الراعي ، وسمع ثغاء الحيوانات المذبوحة الاليم وتناثرت الطلقـــات تصفر في الجو .
ولم يرد الراعي !!
قال الرئيس بارتياح ينافي موقفـــه المتردد السابق وبصوت مرتجف :

ـ فطس !!

قال ابو الدرزي غاضبا ..

ـ نفذ .. مااصابه شيء .

ـ وشرف النبي ضحك علينا ..

وهجم شقير وابو الدرزي والضابط نحو الغنم التي تفرقت في كل الاتجاهات يبتلعها الظلام ، وكانت المفاجأة .

اختفى الراعي كما لو انه شيطان ولم تنجح كل التحريات المرفقة باضواء السيارتين الكاشفة ، والتي جرت على مساحة كيلو مترين ، باقتناصه .

رجعنا منهكين ، مطرقين بروؤسنا في خجل ووجوم .. وعندما اشعل اسماعيل سيجارته ، بدت الوجوه صفراء وفي ثناياها غضب كظيم ، وفي تلك اللحظة حول الجميع وجوههم ناحية الرئيس .. كان شيئاً لا لون له بارداً منعدم القيمـــة كصفر على الشمال .. وانطفـــأت العواطف بانطفاء عود الكبريت .

قال الرئيس بصوت خافت :

ـ هاتوا عشر غنمات .. سنعرف اصحابها .

قال ابو الدرزي وفي صوته ما ينذر بعاصفة .

ـ تريدون الصدق ولّا اخوه ؟

قال الرئيس بقوة :

ـ اخرس !!

لم استطيع النوم في تلك الليلة في الحسكة ، ولا اظن ان رفاقي ناموا ايضا ..

كنا نفكر في الحملة التي سنعدها في اليوم الثاني بعد التحقيقات الاولى للبحث عن الراعي ..

وفي الصباح .. كانت الحسكة كلها تتحدث عن البدوي الذي كاد يقتل آمر سرية وضابطين وعددا من الجنود ولم يستطع العساكر ان يقبضوا عليه لعوامل انسانية او غير انسانية كانت في قلب الرئيس ...

* * *

صاح ابو الدرزي .

ـ بطقنا . .

ـ ومعنى بطقنا ببساطة ، از السيارة غرزت في الوحل ؛ الى نصفها ، وانه لن نستطيع التحرك في هذا المحيط من الطين الذي حولنا ، ما لم يجرها تراكتور حديدي .

نزلنا جميعــا مشمرين .. واخذ الرئيس يسب ويشتم ، وقدماه تغوصان في الارض حتى الكاحلين . قال شقير :

ـ ادفعوا دفعة مضبوطة هاه

وركض اسماعيل وابو الدرزي الى الوراء ؛ وامسك الرئيس باباً وامسكت انا الباب الآخر بينما اخذ الجنديان عصمان ولطوف يضعان

الاحجار تحت الدواليب وانطلقت الشتائم من الجبهـــة الخلفية واضعة كل الرتب العسكرية في الحضيض، فالتفتنا مدهوشين لنجد الجنديين النشيطين وقد كللتهما طبقة من الوحل في ثقل وزنهما ، تفضلت السيارة فطرزتهما بها في هندسة بديعة من القدمين حتى آخر ارتفاع الرأس .

قال ابو الدرزي .

ــ انا قلت من الاول .. لا يطلع الى البر في مثل هذا النهار الا المجانين . لعنة الله على الراعي واجداد الراعي .

كان يمكن ان ننتظر يومين .. فبصق الرئيس بحدة :

ــ اخرس .. شاطر تقعد بالثكنة تشرب العرق . . اكل ومرعى وقلة صنعة .

قال عصمان

ــ وشرف النبي ما في فائدة سننام في السيارة .

لقد حدث ما توقعت فمنذ تركنـــا الحسكة ظهراً ، كانت غيمة سوداء حاقدة تلاحقنا حتى سبقتنا، ثم انفجر المطر انفجاراً مخيفاً ، وبعد ساعة وجدنا انفسنا في بحر من الوحل في هـــذه الاراضي التي لا طرق فيها .

كان مخفر غونة الذي نقصده كمحطة اولى بعيداً بعض الشيء ، تفصل بيننا وبينه ثلاثون كيلو متراً من الطين ولا امــل في ان يعرف وكيل المخفر اننا هنا . . فلم يخطر لأحد ان يبرق اليـه

بمجيئنا حتى ولا الرئيس الذي كان يدعي انه لا ينسى شيئاً . .
فضلاً عن ان من المستحيل ان تمر سيارة تنقذنا او تراكتور يساعدنا
فبالرغم من انقطاع المطر ، فقد ظل الطريق خطراً رجراجاً
لا علامة فيه ولا اشارة .

قال شقير :

ـ بسيطة نمنا ميت مرة بالسيارة (ونظر بتهيب الينا) كنا
قلة اما الآن فنومة لعينة فضلاً عن ان ثياب ابو الدرزي
واسماعيل . . وسكت واخذ يضحك بتشف .

قال ابو الدرزي :

ـ اذا خلعنا المعاطف متنا من البرد

فأجاب شقير متابعاً ضحكه :

ـ لجهنم .

ولمعت في ذهن اسماعيل فكرة :

ـ هذه اراضي الشرابيين . . اظن اننا سنجد حولنا بعض
الخيام . .

قال الرئيس باختصار .

ـ فتش .

قلت : سنذهب للتفتيش ثلاثتنا . . السيارة تتسع للباقين .

فهز الرئيس كتفيه ولم يجب بل ارتشف جرعة ماء من
المطرة ثم دخل السيارة وتمدد بهدوء .

قال ابو الدرزي آمراً وهو يرانا نسير تجاه المشرق :

ــ غربوا غربوا سيدي الملازم ، شرق ما في بيوت ! !

كان الظلام قد اطبق تماماً وليس في السماء سوى فرجة تلقي ضوءاً كامداً عكراً كعين عوراء ، ونحن ننتزع ارجلنا من الوحل لنضعها فيه .. واسماعيل يكفر بنزق ، وهو يحاول اشعال عقب سيجارة مطفأة دون ان يدع له الهواء فرصة الا لحرق شاربيه المتهدلتين .

قلت قاطعاً الصمت لاجل الا انسى اني ملازم .

ــ انتبهوا للبواريد .. فانه اذا وصل الماء لعلبة المغلاق ..

فقاطعني ابو الدرزي ساخطاً .

ــ مفهوم مفهوم ..

ثم تابع ..

ــ لو كان معنا بطحة عرق ! ! وكفر بصورة لا اجرؤ على ذكر تفاصيلها ..

تعثرنا عدة مرات وتلوثت البواريد بالوحل ، فأدخلت يدي في جيب معطفي حتى لا تتجمد ! .

ومن بعيد لاح ضوء . فقلنا جميعاً بصوت واحد :

ــ خيام الشرابيين . .

كان كل منا يمني نفسه بالدفء والخروف المذبوح . . او على الاقل دجاجة . . هذا اذا لم يقيض الله لبعض الدرك

المرور من هنا منظفين الخيام من كل حيوان يوحد الله .

كان الضوء ينبعث من خيمتين فقط.. سوداويين مقرمدتين تحت المطر وفي المدى بعيداً كانت اضواء اخرى تبدو خافقة في الظلام كقلب يدق دقاته الاخيرة .. ونبحتنا الكلاب طويلاً ثم سكتت وصاح صوت نسائي خشن :

ـ من هناك ؟

قال ابو الدرزي .

ـ ضيوف .

ـ يا حياالله .. تفضلوا .

وتفضلنا .. وبعد نظرة واحدة طارت كل احلامنا من شقوق سقف الخيمة، وقال اسماعيل باشمئزاز :

ـ انتم عرب ولا قرباط .

ـ احنا شرابيين .

ـ وميت لعنة .. اين الأكل .. ما في ذبيحة ؟

ـ الحلال بالشول .. سرح فيهم الولد من الصبح . . يمكن فطسوا من المطر .

كانت تحدثنا امرأة لا يمكن تقدير عمرها حتى عند الطبيب، سوداء شوهاء، تلبس مرقعة مُتْحفيّة تخفي كل تقاطيع جسدها .

سرحت بصري في الخيمة .. كان طاسة كبيرة يتصاعد منها

البخار مدفونة في الرماد وحوضا بعض الاخشاب المشتعلة .. جلست حدّها عجوز تكاد تبلغ التسعين قبع في حجرها طفل قذر جداً وهو يبكي وينظر الينا بذعر والعجوز تهدهده :

ــ يا زي يا حبيبي .. يا زي يا صليفج .

وتبينت ان صليفج هذه هي اسم الغلام الظريف . .

وعلى الفرش التي تحيط دوائر الخيمة كانت بضع مخدات من القش قد برزت احشاؤها كأنما فتتها الكلاب . . جلست على احداها بنتان مجدلتا الشعر ، واحدة تبلغ من العمر اثنى عشر عاماً منهمكة في تمرير قطعة من الحبل بين اصابع قدميها اللتين يغطيهما الرماد . والثانية هي اصغر منها قليلاً ، تهرش رأسها بشكل آلي وبلطف كثير ، كأنما تربت على ظهر القمل الذي حل مشكلة الجوع بين ثنايا شعرها الاسود .

وتبينت آخر السهرة ان هذه العجوز واسمها مزنة هي ام المرأة التي كلمتنا واسمها فنشة ، اذكره تماماً لاني غلطت فيه مرات ، واما اسم البنتين فكان زومة وهوزة وهم مع صلفيج يشكلون ذرية فنشة التي سرح زوجها مع الحلال منذ الصبح .

قلت للعجوز متلطفاً :

ــ الخيمة الثانية فاضية ؟

ــ فاضية .

ــ سننام فيها .

ـ اهلا وسهلا .. بطّقتم ؟

ـ بطّقنا ! !

ـ الصبح يمر طراقتور علي العبد الشندوف ويجر السيارة . .

قال ابو الدرزي متعجلاً . .

ـ شوفيه على النار ؟

ـ مرق لحم للصغار تفضلوا . .

ونظر أبو الدرزي الى الطاسة السوداء وتفحصها ثم بصق فجأة :

ـ تفيه .. اموت الجوع ولا آكل هالوسخ ..

ونظرت بدوري في قعر الطاسة . . لم تكن هناك سوى عظمة يتيمة .. تكاد تتفتت من كثرة الغليان ، وبعض قشات من التبن تغور وتفور ومياه حمراء كأننا جمعت من بحيرات الأمطار . .

قلت وأنا اشعر حقاً بالتعاسة :

ـ ننتظر للصبح .. نحسب حالنا صايمين .

وقال اسماعيل مخاطباً العجوز .

ـ يعني ما في هكذا .. شي دجاجة . . شي ضلع شي يملأ البطن ؟

قالت زومة بجرأة وهي تتابع تمرير الحبل :

ـ كان عندنا ديك ودجاجة وبعدين . .

وهززنا رؤوسنا جميعاً فاهمين . الجراد .. الدرك .

ونط ابو الدرزي بعد ان القى عنه معطفه المغطى بالوحل:

ـ سأذهب للتسوق .. اسمح لي سيدي الملازم.. هذا جنس رذيل انا اعرفهم، طبختهم وعجنتهم .. اذا لم يكن هنا .. فهناك عند الانوار الاخرى . .

وذهب دون ان ينتظر الامر

قلت وانا انظر في عيون فنشة :

ـ سمعت قصة الذي ضربنا بالجفت ؟

فساد سكون تام حتى زومة وهوزه اقلعتا عما كان يشغلها فعرفت ان البر كله علم بالقضية .

ـ تعرفي الرجل يا مزنه ؟

فتنحنحت العجوز وفتحت عن فم بلا اسنان مغمغمة :

ـ وايش يعرفني بيه ؟

وبادر اسماعيل .

ـ تكذب ملعونة الوالدين .

ـ تعرفي الرجل يا فنشة ؟

قالت فنشة وهي تنهض :

ـ الحساء كاد يبرد قوموا يا ولاد ؟

وفي تلك اللحظة صاح صليفج حفيد العجوز وأخـــذ ينهنه ويبكي يريد ان .. ان ان ،، يقضي حاجة ، فأخذته امـــه الى

الخارج .. ولحقتها العجوز للسبب نفسه ، لاجل أن تقـدم على الطعام بحالة جسدية جيدة ، ولم تكلف العجوز مزنـة نفسها الابتعاد عن الخيمة كثيراً ، فاقعت قليلاً على مرمى من بصرنا ، ثم قامت تاركة تحتها ساقية صغيرة،وعادت وهي تتنهد بارتياح..

اخذوا يأكلون بلذة عظيمة ، كانت سرة العجوز تلوح من ثوبها الممزق لكثرة اجتهادها في الحركة وهي تأكل، اما الاطفال فقد كان المرق ينساب كالمزراب من اكواعهم ، واخـذ صدر صليفج نصيبه ايضاً من الوليمة .

وعندما ظهرت قطعة العظم الباقية ، صار حولها جدال حام وتقاسموها اخيراً بطريقة المص واحداً بعد الآخر ... وعندما تجردت العظمة حتى عن عظمها، اعطوها لصليفج الذي اصطحبها معه الى فراشه توا ، ورد اللحاف على رأسه وهو يزمجر فوقها كهر صغير ..

جالت الايدي في الصدور .. وفتحت الأفواه تتثـاءب .. وصاحت الجدة بحفيدتها زومة آمرة ان تنهض لتحك لها ظهرها . أي هنا .. أي هنا .. آه آي . ها ها أي هنا وهنا سال لعاب الجدة من فرط اللذة فشرقته بعدان حمل شيئاً من دسم شفتيها .ثم رفعت أصابعها تنتف بعض الشعر العالق بشاربيهـا .. كانت اصابعها شيئاً عجيباً .. مشققتين تصلحان فرشاة للخيل.

قلت لزومة : تريدين تشترين حصان ؟

فنظرت الي بتحفظ وحذر ثم قالت :

ـ لا .. اريد حمار .

فأخرجت عشر ليرات وقلت لها وأنا ابتسم :

ـ قولي لي مين هو الرجل اللي ضربنـا .. أعطيك العشر ليرات ..

قالت الجدة وهي تسعل :

ـ تريد فضحنا عند العرب .. ما نعرفه !!

قال اسماعيل غاضباً :

ـ اخرسي انت .. فأخذت الصغيرة تبكي .

وتكلمت فنشة الصامتة :

ـ ما نعرف الرجل والله . لا تتعبوا نفسكم .. اسألوا المخافر.

ـ عشر ليرات يا زومة خذي .. شو اسمه ؟

ـ ما اعرف اسمه !!

ـ اذن تعرفين العشيرة .. سأشتري لك حماراً كبيراً يحمل الحطب من جبل عبد العزيز دون ان يتعب .. هـاه ؟ . قولي .

فنظرت الصغيرة بذعر الى جدتها وامها ..

كانتا خائفتين من ان تتدخلا في الحـديث تحت نظرات اسماعيل المضطرمة ..

ـ سيكون الحمار عريضاً وله ذيل طويل . . من اي عشيرة يا زومة ؟

وسرحت زومة قليلاً تفكر بالحمار .. وتنظر الى الليرات العشر الملقاة امامها :

ـ سأضع لك في اذني الحمار خرزة زرقاء وشبه وليرة عصملية، من اية عشيرة يا زومة ؟

ـ الرجل .. من .. جبور !!

ـ أي جبور ؟

ـ جبور .. جبور الفاضل .

وصرخت امها وهي تصفعها :

ـ آه يا خاينة ..

وقالت الجدة بغضب وهي ترمق النقـــود وتزجر البنت الباكية :

ـ فضحتينا .. ستقتلنا الجبور ..

تنفسنا بارتياح ، واشعل اسماعيل سيجارته الأخيرة ناظراً الى الباكيت بأسى وهو يعصره ويلقيه في النار . ودخـــل ابو الدرزي اسود كالليل . . موحلاً قذراً وعيونه تلمع كالجمر . والقى بين يدينا دجاجتين وباكيت تاطلي :

ـ الم أقل لك سيدي الملازم .عاجنهم وطابخهم .. جنس رذيل .

* * *

كان الوكيل ابو حاتم الجرو رئيس مخفر غونة ، رجلاً هماماً بكل معنى الكلمة ، فالى جانب نشاطه الهائل في اقتناص الغنم الشاردة ، وتقديمها طعاماً للجنود توفيراً على الدولة . كان يؤمن لجنوده مصروفاتهم البيتية ، فمن شوالين من الحنطة ، الى سبع تنكات سمن، ومن كروزات اللاكي سترايك والفيليب موريس الى بنزين السيارات، ومن أحجار القداحة الى ربطات الثوم .. كان مخفره مخزناً عظيماً ممتازاً يكفي فرقة محاصرة شهراً كاملاً .

ولقد استطاع هذا الوكيل الصلب طوال عشرين عاماً قضاها في الجيش .. ان يكسب ثقة رؤسائه التامة رغم تغير العهود ،حتى لقد زعم لي ان الفرنسيين قد رشحوه ليكون ضابطاً ، ولكنه فضّل حياة البداوة والتقشف على نعمة المدن وريحتها الزنخة ، ويمكن ان تعرف الى اي حد استطاع ان يفرض الهيبة على البدو من شمال الجزيرة حتى جنوبي البوكمال ، من اقوال البدو عن جهنم التي ابتلى بها الله اهل الجزيرة وهم على قيد الحياة . . كانت كل طبخة يضع ابو حاتم الجرو يده فيها ، مصيرها الحل بسرعة تدهش دمشق ، ولذلك كان معروفاً في دوائر قيادة حرس البادية من اقدم عقيد حتى آخر مجند .

حتى ان الشيشكلي نفسه بعث اليه بكتاب تهنئة يحفظه في عبه . ويتحدث الجميع ــ بهمس طبعاً ــ عن القتلى الذين شاء سوء حظهم ان يتصادموا مع الوكيل النشيط .

فليس يوازى سرعة غضب ابي حاتم ، سوى سرعة انتقامه

.. فيرفع البندقية بهدوء ، وعندئذ يتمدد انسان قتيـــل بكل بساطة دون ان يطالب احد بدمه ، ودون ان يعنى أحـــد بإرواء عطش الهامة التي تصيح على قبره ، في مدى هـــذه الصحراء المتسعة .

وكالعادة حميت الحديدة ، عندما علم ان الشخص الذي تجرأ وتعدى على هيبة الحكومة هو من جبور الفاضل التي كان يكرهها لسبب غير معروف . وكانت نظراته للرئيس فيها عتاب شديد على هذه الانسانية التي جعلت اضابع الرئيس لا تشد على الزناد في الوقت المنـــاسب ، لتخرج الروح النجسة الى ملكوت السموات ، بدون ان يرتفع رأس بعقال للمطالبة بدمه . وكان في نظرته ايضاً شيء من عدم التصديق بدوافع هـــذه الانسانية ، لم يبرزها بشكل واضح يحرج ضابطه ، وهذا هو السر الذي جعل كل الرؤساء يرضون عنه .

لفـتي بنظرة من القدم الى الرأس ، ونظر الى النجمة المتهدلة على كتفي وهو يتنهد ، ثم شد على يدي بقوة مؤلمة :

ـ تشرفنا سيدي الملازم .

وابتدأ الشغل ، فالوكيل ابو حاتم ليس عنده وقت يضيعه ، فبالرغم من انعدام الحوادث والمشاكل في كل منطقته ، فان باستطاعتك ان تراه دوماً مشغولاً في دوريات لا يعـــلم سرها حسبما يقول ، سوى القيادة العامة ، والرئاسة في الحسكة تعرف

نشاطه من فواتير البنزين التي تصرفها سيارتاه اللتان تستهلكان على ما يبدو حمولة صهريج كامل في الشهر !.

التحقيق الذي قام به ابو حاتم بدا للجميع طبيعياً جداً ؛ حتى ان جنودي كانوا يتثاءبون وهم يرون الضرب الوجيع والجر بالحبال والتمريغ في الوحل واشعال النار في الشعر ، ولم يمنعني من التقيوء والاغماء سوى نظرات ابو حاتم الصارمة التي كان يتفضل بها علي في فترات استجمام فمه من تعب الشتائم والبصاق على الذقون .. نظرات مشجعة مضخمة بالاحترام الكاذب ، المشحون بمعان اخرى لضابط جديد يحتاج كثيراً الى فت الخبز كي يتعلم .

وبين العويل والبكاء واللطم والايمان الكاذبة . . نطق شيخ عجوز جداً ذو جسم كرتوني يخيل اليك انك لو عصرته لما خرج منه نقطة دم .. نطق ورأسه يتدحرج على الارض ؛ وذقنه تجرف الوحل ، ورجله معلقة بذيل البغلة التي كانت تجره تحت سياط الوكيل .

ـ انا ما اعرف اسمه . . لكن اعرف كلبه ، هو عندنا .

وجمجم الرئيس بغيظ :

ـ اهؤلاء بشر ام حجر ؟ تصوروا هذا العذاب الذي لا يتحمله حيوان ؛ ومع ذلك يقول انه يعرف كلبه . . ماذا تريد من الكلب يا كلب الكلاب ؟

قفز شقير باهتمام واوقف البغلة :

ـ اين كلبه ؟

واشار الشيخ بيده المرتجفة الدامية وعيونه لا تكاد تبصر من الدموع .

ـ الاسود .. بين الغنم .. مشرّق

ورفع شقير بارودته واحكم هدفه على الكلب الذي عرفناه تماماً واطلق رصاصة .

وارتفع عواء مجنون وركض الكلب يجر رجله المحطمة نحو الشرق هارباً لا يلوي على شيء .

وصاح شقير وابو حاتم معاً .

ـ عرفناه . . عرفناه ..

والتفت الينا ابو حاتم بوقار كمن فمس القولة :

ـ كلب العرب عندما تجرحه يذهب الى اصحابه ولو كانوا في ابعد الارض ..

وركبنا السيارات واخذنا نطارد الكلب الذي اقعى قليلاً يستريح ، ثم تابع سيره وعواءه هذه المرة بدون رجله التي تركها مرتعشة على الارض . ولاحت على البعد بعض البيوت فضحك ابو حاتم بتشف :

ـ يومك اسود يا صالـــح السلمان .. عرفت الولد سيدي الرئيس .. وهز رأسه وقد لمعت عيناه :

ـ السنة الماضية اخذت اضربه حتى كاد يموت . . جاءنـا امر من محكمة الحسكة بتخلية الارض التي يزرعها لصالح الشيخ دعيبس ولكن المنكود رفض.وقال : الحكومة مع الشيوخ ، مع النهابين ! !

وصمت قليلاً ثم تابع :

ـ يومك اسود يا صالح السلمان . . تطلق على الرئيس اذن منتقماً . . (وهز رأسه) طلع طلعة من الارض ما تسر صديقاً . . نسوانه كن يولولن عليه . . واصبح راعياً للشيخ بعد تسليم الارض .

قال الرئيس وهو ينظر من النافذة :

ـ اذن هذه هي القضية ! ! كان يجب قتله هالعكروت . . ولكن طيبة القلب ! !

ولم يجب احد بل ساد سكون تام .

عرفنا عندما تقدمنا من البيوت ان كل شيء قد انتهى . . كان ابوا صالح السلمان يقفان امام باب الخيمة وهما يضربان وجهيهما ويصيحان :

ـ ها ها وءخربت بيوتنا . . هاها وتقتلت ولدنا . .ها هاويا ويلم ها ها و . . بينما كانت كل الخيام المجاورة تردد الصدى وتجيب على الصيحات المجروحة . .

وركضت صبية جميلة وحثت التراب على رأسها وارتمت على قدم الوكيل مستنجدة .

ـ اذبحوني انا واتركوه ! ! خذ اللي تريده واترك اخوي . . خذ

اللي تريده يا بو حاتم .. اللي تريده ...

ـ اللي اريده هاه ؟ اللي اريده يا ربعة هاه؟امّا من أسبوع، روح يا بو حاتم عيب !! عندك مره وولاد . اللي اريده هاه ؟؟

قال الجملة الاخيرة بهمس ثم تركها جانباً واندفع يسلم على الاب بلكمة القته ارضاً ، وعلى الام برفسة على بطنها الحامـــل. وأخذ يزعق كالمجنون عندما اخبره الاب ان ابنه صالح السلمان قد هرب عندما سمع بقدومهم منذ الصباح .

ودخل ابو حاتم الخيم.. كنا جميعاً من الرئيس حتى اصغر جندي مدهوشين مرتبكين واقفين بتبلد كأبي سعد على ساقيه ..

وخرج وهو يجر نسوان صالح السلمان على الارض مــن شعورهن ، فاخذن يستنجدن ويصرخن .. ثم خيم الصمت مرة واحدة على الجميع !!

ولمعت نفس العينين الحاقدتين كالسيف تغوصان في قلوبنـــا وتقدم شاب اسمر طويل حليق الرأس يحمل جفته بين يديه ؛ ظهر كأنما انشقت عنه الارض.. ومشى امامنا ثابتاً ووراء هدوئه نفس تحترق ، حتى وقف امام ابي حاتم الذاهل ثم قال بصوت عميق :

ـ اترك النسوان يا بو حاتم .. اترك النسوان يا نذل . . انا اسلم نفسي .

* * *

كنا صامتين كالاصنام داخـل السيارة نسترجع ذكريات هذين اليومين الحافلين ..

وكان ظاهراً من طريقة جلسة الرئيس انه مرتاح جداً ..

وقطع الصمت اسماعيل هامساً لزميله :

ــ تعرف يالطوف .. جنس عجيب .. عجـوز يموت ويتعذب ويتقطع دون ان يفتح فمه؟.. هالولاد الكلب !!

وسكت قليلا وتابع بصوت اكثر همساً :

ــ انا والله لو ضربوني خمس خيزرانات .. لقلت كل مـا اعرفه .. هيه وانت ؟

ــ وشرف النبي يا اسماعيل .. وشرف النبي .. رجـال اقوى من دولة !!

صالح السلمان صامت لا يجيب على كلمة ، بل اخذ ينظر من زجاج النافذة بدون ان يتحرك ..

ثم انتفض فجأة وهو يرى قطعة ارض حمراء مخددة تمر من جانبه مبتعدة .. ونظر الى الرئيس طويلاً ثم قال باحتقار وهو يصر على اسنانه منتقياً كلماته :

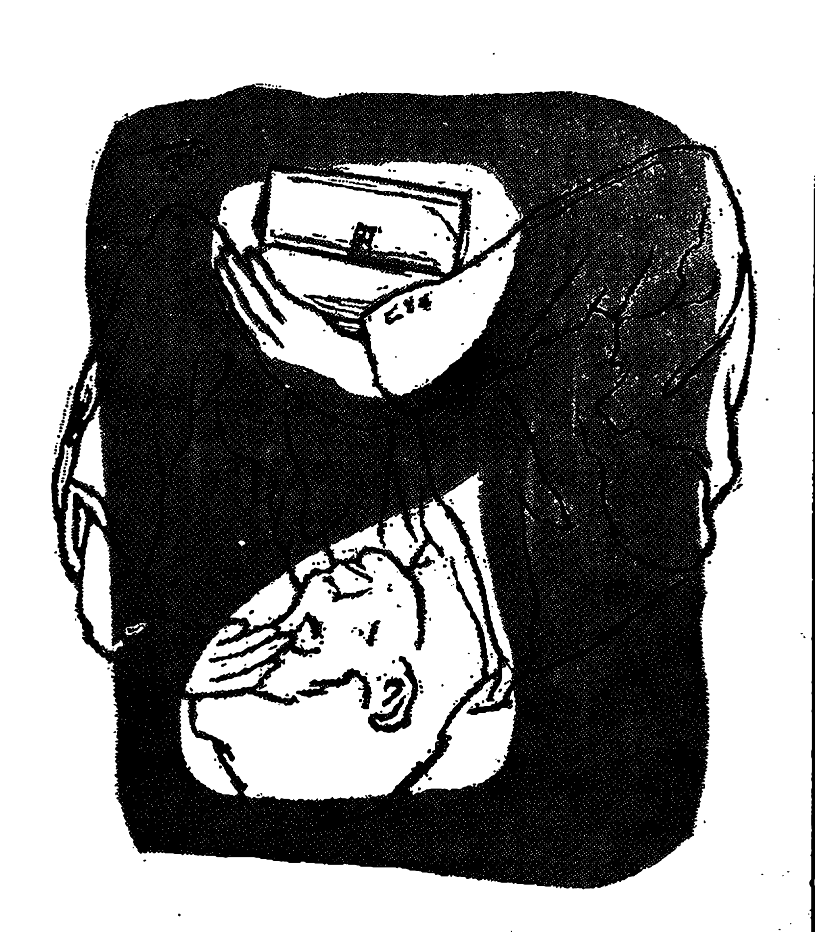
ــ تعرف يا حظرة الريس .. حكومتكم كلها ما هي زينة ..
تعرف يا حظرة الريس .. حكومتكم حكومـة نذال ..
حكومة خوان .

١٩٥٦

الصندوق النحاسي

«لقد ماتت وأنا في الثانية من
عمري ولكني أتذكرها تماماً .. لقد كان
شعرها ازرق وعيناها حمراوين»

[جيمس الابن]



(نالت هذه القصة الجائزة الاولى الممتازة في
مسابقة مجلة النقاد التي اجريت في عام ١٩٥١)

ها أنذا أعود بعد أن نفضت يدي من تراب أمي .
كنت اسير وئيداً واتلفت حوالي بحذر ، ثم
رفعت طرف سروالي لأمسح حذائي بجوربي لأخلص
من تراب المقبرة . . كيف هربت هكذا بعد
الجنازة ؟ ماذا يقول الناس . ؟ الى الجحيم
بأقاويلهم . . أخذت انظر الى بريق الحذاء بارتياح ،
وتذكرت أنه يجب أن أضع له ميالتين من الحديد
حتى لا يبلى سريعاً ؛ بينما حاولت أن اشعل سيجارة
التاطلي سرت غليظة من الولاعة التي كان ينقصها
الحجر ، ولما ذهبت محاولاتي ادراج الرياح ،
اشعلتها من اخد المارة ونسيت ان اشكره ، ثم
بصقت بشدة .

لا ادري ماهية الاحاسيس التي تكتنفني في هذه اللحظة ، وحاولت جاهداً بحكم طبعي كطبيب أن انفـذ الى شعوري فأحلله . كل ما شعرت به كان احساسات متناقضة ، كنت خفيف الحركة تملأ نفسي كآبة غامضة فيها ارتياح لا أدري سببه ، ولكن الشيء الوحيد الذي تأكدت منه هو أنني لا أشعر بشيء من الحزن .

« ماتت امك » هذه هي الجملة التي طالعتني بها الخادمة مساء البارحة ، وهي تنظر الي من خلال اهدابهـا ، واعترف أنني لم أفكر في معنى قولها تفكيري في منظر عينيها تملأهما الدموع .

والآن ، مات الشخص الوحيـد الذي يربطني بذكرياتي وحياتي الماضية ، ذكرى تلك الايام التاعسة ، البطيئة ، القاتلة . أيام كنت صغيراً ذليلاً أقف امام البيوت أطرقها بيد شققها البرد لأسأل عن أمي .

ووجدتني اردد من أسناني « إلى المقبرة تلك الايام » .

لقد كانت أمي بكل بساطة، غسالة! غسالة! حقيرة في بؤرة من بؤر حي الميدان .

ولقد كنت اتمثلها وهي عائدة من عملهـا منفوشة الشعر ، لاهثة الانفاس ، تبدو يداها بيضاوين بشعتين من تأثير المـاء والصابون ، فتضع في يدي القرش الذي اتلقفه في لهفة مقرونـة بالخجل . وحينما أحس بيديها تحتضناني وتضماني الى صدرهـا ،

وأرى في عينيها دموعاً لم استطع في يوم ما أن اجد لها تفسيراً ، كنت اتمنى ابقى في حضنها إلى الأبد .

ونشأت بين رائحة الصابون ودخان المطابخ وقذر الثياب ، أرى كل يوم بخار الماء الغالي والثياب المكدسة الوسخة ، وأرى أمي منحنية انحناءتها الخالدة فوق الطبق ، وقد لهثت ككلب ، ونبطت عروق رقبتها ، وجبينها تندى بالعرق ، بينما أخـذت يداها تعملان جاهدتين في فرك الثياب .

وعندما كنت أعود من المدرسة إلى بيتنا الفقير الخاوي من كل ما يملأ البطن ، كنت أدور عليها في بيوت الحارة حتى يستوقفني صوت :

ــ ابن الغسالة .. ابن الغسالة .. امك عندنا .

وأدخل بيتاً غريباً فيه أحياء يتحركون بدون عيون ، لأنني لم أشعر ذات يوم أنهم نظروا الي أو احسّوا بي..واحمل فضلات الطعام التي يعطونها لأمي واخرج وأنا مختنق، متعب،مشمئز كأنما احمل على ظهري اكداساً من القاذورات .

ومن هذا العمل الدؤوب .. كنت أحمل محفظتي صباحاً واذهب الى المدرسة .. مفكراً بالمستقبل .. بانياً الخطط وأنـا اري نفسي معزولاً وحيداً امام قوى العـالم . . وكانت امي تقول لي :

ــ ما دام في هذا الجسم ذرة من روح فستتعلم .. اريـد أن

تصبح دكتوراً . لقــد ماتت أختك لأن الدكتور رفض ان يطببها بدون أجرة .. اريدك دكتوراً يرفع الرأس .

سألتها مرة عن والدي ، فاتسعت حدقتاها بذعر وأطرقت واجمة ، وقالت بعد تردد إنه مات منذ ولادتي ، فدفنت رأسي بحضنها ولا زلت اذكر نبضات قلبها السريعة، ونشيجها الواهن. وشعرت بدفء حنانها الملتهب وهي تضمني ضمة كادت تحطم اضلاعي الطرية .

كنت دوماً متعباً مرهقاً اكره العالم والاطفــال واللعب .. وكانت معاملتي لأمي شاذة ، فلقد كنت قاسياً عليها انتظر اقــل حافز لأنفجر ، ولا اعلم بعد ذلك سبب ثورتي ، واذكر ذلك اليوم الذي انفجرت في وجهها ونعتّها بالغسالةخادمة البيوت.. التي لا تطبخ إلا إذامرضت.. ثم..ولا ادري كيف حصل ذلك.. ضربتها بحذائي!!

وكانت تقابل ثوراتي المتكررة بصمت ثقيل كنت احس به حجاباً صفيقاً يقوم بين قلبينا إلى الابد .

لقد كنت غريباًبين العمالقةمن ابناءالاسر الاخرى؛وكان قصر قامتي يولد فيّ احتقاراً مريراً لنفسي ؛ فكنت اطأطىء رأسي امام كل مناقشة اعرف تماماً انني بها مصيب . الست قصيراً ؟ الست سخيفاً فقيراً ابن غسالة ؟ فنم التبجح بالمنطق والمرافعة والسفسطة ؟ يكفي ان يقف محدثي امامي قليلاً ، فأقيس قامتي

بقامته ، حتى اشعر ان قنفذاً التف حول رقبتي . . انني حقير . حقير . . ولكني كنت واثقاً من ذكائي . . لقــد كانت كل الاشياء تقنعني به يوماً بعد يوم.. امي .. واساتذتي .. ودرجاتي المدرسية .. وكانت امي تقول لي دئماً :

ـ اتمنى ان يكون قلبك كبيراً .. كعقلك .

ولقد كان قصري يولّد في نفسي غضباً على امي ! ! اليست هي اصل البلاء ، اليست سبب حياتي الذليلة ؟ ماذا لو ولدتني غنياً احمل تلك المحفظة التي يحملها عصام مثلاً واركب مثــل سيارته ؟ الست اذكى منه ؟ . الم نتعلم ان المال ليس كل شيء في الحياة ؟. انه لا يمتاز عني بشيء . . ولكنه . . آه . . انــه اطول مني ، دائماً الطول..الطول اللعين . لقد كنت إذا مامررت بجدار احاول ان اقيس طولي على تموجات الدهان فيه ، وكنت انظر إلى ظلي في شمس الغروب ، وتنطلق مني تنهدة ، مــا اشد لهفتي الى ان يصير طولي كظلي !! وكنت اسمع عن ليلة القدر ، واسهر ليلتها وانا اهيء الدعاء . . ليس ثمة شيء كثير سوى جبل من ذهب ، وعشر نساء بيضاوات كالثلج ، وقتر مــن طــول .

وكنت ارتاح لشيء واحد ، واشعر فيه بسيطرتي ، وهو انني كنت احس بالزهو والعظمة حينمااقف امام امي . .لقد كانت قامتي اطول من قامتها قليلاً . . يا للفرحة العارمة . .

هل كنت أبغضها ؟ لا اعلم تماماً .. ولكنها كانت تخافني ..
وكنت اردد امامها دائماً انها ولدتني للعــذاب والشقاء .. وهي
السبب في كل مساوئي .

ومشيت في طريق الحياة ، مسلحاً بالغرور واحتقار الناس..
الست ذكياً ؟. الست عبقرياً ؟ . ان درجاتي تنبيء بذلك . .
ماذا يضر اذا كانت لي ام جاهلة غبية كهذه الأم . . الم اسمع
عن الزهرات التي تنبت في الوحل وتمتص منه غذائها ؟ .

ووصلت الهوة التي تفصلنا الى قعرها .. عندما اخذت اخيراً،
وبعد كدّ سنوات ، اجازة الطب .. لقد صرت دكتوراً . . من
يصدق ان اماً كهذه لها ابن دكتور.. اني احس بالهوان في اعماقي
.. اذكر تماماً نظراتها الفرحة إذ ذاك . . وبكاءها وصياحهــا
اللاهث .. مبروك يا ابني .. مبروك يا حبيبــي .. وتنهدت كأنها
أدّت مهمتها .. ونظرت إلى يديها بفخر ، ثم اخفتهما عني بعـد
ان شعرتُ بالامتعاض لبشاعتهما ، ومرضت ثلاثة ايام مــن
الفرح .. لقد كانت سعيدة جداً لأنها كانت اول زبائني .

كنت احتاج الى المال لاجل ان اجهز عيادة ، والى الدعاية
والشهرة والعمل بدون اجر ، والرضاء بالقليل لأبدأ الطريق ..
فإلى العمل ايتها الغسالة . . الى العمل ايتها العجوز الفانية . ..
عليك ان تؤدي ضريبة أن ابنك قد اصبح دكتوراً رغماً عن أميتك
وحقارتك .

ودارت الآلة الصدئة بجهد وصعوبة ، ما أعجب البشر . .

من يصدق أن هذه الكتلة المتعبة من اللحم والدم تستطيــع ان تعمل خمس عشرة ساعة ليلاً نهاراً .. تدور على البيوت وتحمل رزم الغسيل مرددة في كل مكان :

ـ اعندكم مريض .. ابني دكتور .. دكتور عظيم ويفهم .

وتأسست العيادة ، وامرتها ان تتوارى حتى لا تلوث سمعتي .. ماذا يقول الناس عن دكتور لا تزال امه تعمــل غسالة ؟! يتوجب علي ان اعولها بعد الآن .. لا بأس .، سأعيلها ، ماذا يقول الناس ؟

قد انسى اشياء استطيــع ان اتناساها بالارادة ، يكفي ان افكر بشيء آخر ، عند ما تقفز الى ذهني ذكرى أليمــة ، افكر بسهرة هانئة مثــلاً ، او بواجب ملقى علي ، او اتذكر مشاكل عيادتي ومرضاي ، او احاول ان احصي عدد الوان السقف المدهون ، او ابادر الى اصطناع مشاجرة حامية مــع الخادمة .، ولكن تلك الذكرى لم استطع أن امحوها . . كانت دائماً تحز في رأسي كمقراض ضخم ، يذكرنيبها الجو.. والصباح .. والشارع .. ليستهي ذكرى غريبة ، ولكن بعض الذكريات البسيطة او التي تبدو بسيطة ، تبقى دائماً احدى خلايا ذاكرتك ، فلا تفكر الا وتتحرك الخلية لتندمج مع الخلايا الأخريات .

عندما جئت اعلمها بخطوبتي كان الحر خانقاً ، والنوافــذ المطلة على الشارع مفتحة ؛ وبدأت كلامي وانــا اسمع جلبة

العربات وصوت الحوذي وهـو ينهر جـواده ، الترام الذي يرسل رنينه الواهن المنتظم ، بينما ملأت الجو هتافات باعة الصحف ، وهم ينادون عن جريمـة مشهورة ، ودق ناقوس الكنيسة يعلن الثانية عشرة ، وكانت تنبعث الى أنفي رائحـة المازوت الكريهة من شركة الكهرباء ، وبدا امـام عيني في الرصيف المقابل عنوان ضخم عن راقصة مشهورة برخصها وعهرها .. وشكلت هذه الاشياء جميعها جواً زاد في حـدة اعصابي .

بدأت اقول بغير اكتراث ، انه قد آن لي ان اتزوج ، واخذت اعد الحوائج التي سأستشريها فقاطعتني بهدوء تسألني عن زوجتي المستقبلة.. يا الله ، كيف سهوتِ عنها يا امي ؟ إنها رمزية ..

ورأيت وجهها الهرم يتجعد ويمتقع ، ولا ادري لماذا تذكرت دهان مطعم سقراط في ذلك الوقت !! كان وجههـا مسرحاً لاحساسات متناقضة ، فانا اعرف مقتها الشديد لرمزية ، جارتنا التي كانت تتجاهل امي كلما زارتنا تجاهلاً تاماً . ولكنها مدت يدها المرتجفة وهي تقول : مبروك يا ابني . . مبروك ، فوجهت اليها الطعنة القاضية : امي إني اري أن صحتك لا تساعدك على الضجة ، وإني قد استأجرت لك مسكناً في سوق ساروجـة ، وبذلك تتخلصين من عناء البيت والاولاد ..

وخيل الي انوجههاقدابيض وشحب،وبذلتجهوداً جبارة

كي تبتسم من خلال دموعها التي حبستها، وكان منظرها مضحكاً وهي تغالب عينيها الكابيتين ثم تجيب بصوتها الهادىء : مثل ما تريد .. مثل ما تريد .. وفي اللحظة التالية هوت على الكرسي وهي تسعل سعالاً متصلاً هز جسدها الشيخ هزاً عنيفا ، وقبض على قلبي خيط واه من الحنان ، ولعنت رمزية التي اشترطت عليّ ابعادها ، ولكنني ، مع ذلك ، لم أتراجع ، فانفصلت عنها حتى جاءها السل ، فاتيت بها أمرّضها في بيتي .

ومرة اخرى استعنت بأحد المارة على اشعال سيجارة هي آخر ما تبقى في العلبة ، ومرة اخرى نسيت أن أشكره .

وقفز الى ذهني خاطر رهيب . الست أنا القاتل ؟ نعم أنا الذي قتلتها ، لقد أصابها الاجهاد بالسل في بيتها العفن ، وهي صابرة لاتتكلم ، وكنت حينما أزورها تجاهد نفسها حتى لاتشعرني بمرضها ، وكنت لااطيل زيارتي ، مرة كل شهر ، والزيارة خمس دقائق ، كأنها أحد المرضى الفقراء الذين خصص لهم يوماً مجانياً على سبيل الدعاية لاعطيهم وصفات لاتنفع شيئاً . ولكنني كنت ألاحظ امتقاعها ، والبقعتين الحمراوين على وجهها من اعراض السل الرئوي ، هل كنت أتعامى عنها لأتخلص منها ومن كل الماضي المخجل الذي تمثله؟ أخيراً نقلتها الى بيتي وأخذت أمرضها بفتور . كانت تلح علي ألا أتفرغ لها هي العجوز التي شارفت نهاية حياتها ، وأن أترك اوقاتي للعيادة ، وكنت أطيعها وأحس بشيء من الارتياح الخبيث وأنا أغادرها ، حتى كان مساء البارحة ..

اتصلت بـــي الخادمة تقول إن نوبة حادة أصابت أمي ، وكنت أعالج رجلاً ذا مكانة فعز علي تركه ،ولكنه عندما علم أن أمي هي المعنيّة ، الح علي بالذهاب فغادرت عيادتي غاضباً .

لست انسى النظرة الوجلة المستكينة التي قابلتني بها..واحسست بعينيها تنهبني وتجردني من ثيابي ، فأدرت وجهها بعنف فتأوهت وصبرت على قسوتي وانا اضعها في الفراش دونما لطف .. كانت عيناها تلاحقانني..آه لو تنطفىء هذه النظرة الفظيعة من العينين.. انا لم أرها في حياتي تنظر الي على هذا الشكل .. أكرهتها إكراها على شرب المسكّن فهمدت ولكن عينيها ظلتا مفتوحتين مسمرتين علي .. ضربت الباب خلفي بعنف وقوة وهربت الى الفضاء .

وحينما عدت في المساء كانت امي قد ماتت .. ودفنت اليوم كأنها متشردة لم يسمع بهاسوى قلة ..ذلك لأنني لم اقل لأحد عن موتها .

* * *

كان أناس اعرفهم يدخلون ويخرجون من البيت حينما عدت اليه ، ولمحت زوجـتي تصف الكراسي بهمـة أصحاب الرسميات ، قطبت وجهها وبادرتني بسرعة :

ـ لماذا تأخرت .. نسيت الصبحية ؟

ـ أية صبّحيـة؟

ـ أف ... بعد دقائق يأتي الناس للعزاء، هل اوصيت على القهوجي ؟

ـ ومن اين آتي به ؟

ـ من أية قهوة .. اسرع يارجل .. ماذا يقول عنا الناس اذا اهملنا

ـ لايهمني أحد .. ياليتنا لا نجلس في الصبحية ! !

ـ لا .. لا تقل مثل هذا القول الأحمق، وإلا استاءت الحارة كلها غداً ، وقل عدد مرضاك، إن الناس ينتظرون سيرة يعلكون بها ، إن هي الا ثلاثة ايام وننتهي من هذه المصيبة .

ولاول مرة لاحظت ان حبة وسخة صفراء تحتل خدّ زوجتي، وانها مملة ، فاستدرت بهــدوء انفذ الأوامر ، وشعرت طوال العشيّة انني غريب، وان المقرىء المزعج الذي أتى به مختار الحارة، لايصل صوته الى اذني ، وكنت أقوم واقعــد وأرد التحيات ، بحركات اوتوماتيكية ... اوه ما اتفه الحياة .

وتقدمت زوجتي مني تدعوني للنوم بحجة اني منهك بعد ان خلت الدار من المعزّين ، ولكني قابلتها بصمت ووجوم ، فهزت كتفيها وذهبت وتركتني وحيــداً جالساً على الكرسي أحدق في الأضواء المنيرة الكثيرة دون ان يطرف لي جفن .

وعندما أطفأتُ الأنوار ، كانت تنتابني كآبة حائرة ، وخيل

الي اني اشعر بالبرد رغم دفء الجو ، وبأن شيئاً ما ينقصني كأن أحد اعضائي قد انفصل عني ، فأدرت وجهي وأخذت اتمشى وانا ادخن .. خيل لي أنني ضائع ، وان زوجتي قبيحة ، وان البيت الذي أعيش فيه .قبو معتم ، وصرت ادخل غرف البيت وأخرج منها كأنما افتش عن شيء يخلصني من حيرتي .. شد ما انا حائر شد ما اشعر أنني فارغ .

وهززت رأسي وانا احدق في سريرامي ، واقلب الحوائج الموجودة على المخدة بملل .. عدة خياطة .. ومجموعة متباينة من الابر .. وعدة اوراق منها وصفة طبيب عرفت فيها خطي وورقة عليها حجاب يبدأ هكذا « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا حجاب يمنع جميع الأمراض ويداوي كل العلل بقدرة الواحد الاحد الفرد.. » وهذه ورقة اخرى .. ما هذا ؟ كانت ورقة كأنها لطالبة صغيرة تتعلم حروف الهجاء وتبدو فيها محاولات لكتابة جملة صغيرة . وابتسمت ، هل كانت امي تتعلم الكتابة قبل ان تموت ؟ ياللأمر المضحك ! ! الآن فهمت سر تلك الأوراق التي كانت تخبئها هي والخادمة التي تعرف القراءة والكتابة حينما آتي ، والتي كنت لا القي اليها بالاً ككل شيء يصدر عن امي .. لعلها ارادت ان تفاجئني !! اوه كم كانت طيبة ونقية هذه العجوز الفانية . وخيل الي انني اتمنى ان اراها وان اضمها الى صدري فرحاً بتعلمها الكتابة ، وان اقبلها على خدها الأجعد والمح السرور في عينيها .. وغمغمت :

ـ مسكينة لقد ماتت ولن ترجع الى الأبد .

وشعرت بغص حاد فجلست على حافة السرير ، وخيل الي ان راسي اكبر من الغرفة وعرتني رعشة حزينـة .. كم كانت تحبني .. اليس رائعاً ان يجد الانسان في هذا العالم البارد من يدفئه بحبه ؟

وقلبت الورقة ، فرايت عليها جملاً مفككة رديئة الخط لدرجة تجعل من الصعب قراءتها .

وطويتها ببطء ، واحسست بثقل يبهظني كأنني البس رداء من الرصاص . وحاولت ان افعل اي شيء ، ان ابكي .. ان اضحك ، فلم استطيع . وحدقت في الضوء طويلاً دون ان اشعر بأي الم . يالها من حياة عاشتها هذه العجوز .. وشعرت بخدر كالشلل يتسرب الى اعصابي فأخذت اقضم اظافري . وكانت يدي ترتجف اذ لم استطع ان اكبت شعوري ، كما كنت افعل من قبل فأسرعت ودسست راسي في الماء .

شعرت ان دموعي المختلطة بالماء طاهرة ، وان وجودي قـد اصبح مليئاً اكثر من ذي قبل .

عدت الى الغرفة ودموعي تتساقط في صمت ، وجلست على السرير مطرقاً ، ولمع شيء تحت مقعد في آخر الغرفـة فاسترعى انتباهي ، ولما اخرجته وجدته صندوقـاً صغيراً تذكرت ان امي كانت تضع فيه حوائجها الخاصة ، وكان ضوء الغرفة يقع على

معدنه الرخيص الصدىء فيبدو كامـداً عتيقاً كأنه قبر نحاسي ، واعتراني شيء من الوجل وانا افتحه .

ووقفت احدق في دهشـة وذهول في محتويات الصندوق ، بينما حاولت الابتسام من خلال دموعي ووجدتني اشهق من اعماقي .

لم يكن في الصندوق سوى صورة لشاب يشبهني ، واظن انه ابي ... وشيء أخر ، وغصصت بريقي .. حذاء صغير وسخ ، هو نفس الحذاء القديم الذي كنت ضربتهـا به يوماً في احدى ثورات غضبي .

١٩٤٩

حمد دياب

شجعان .. أباة .. وحشيون في
الدفاع عن الحرية .
وهذه الجبال المتلفعة بالعواصف ..
منازلهم .

[بورتر]



كانت الاكواخ البائسة حولي مخنوقة الصوت ، ولا شيء سوى هسيس الثلج على الثلج . ثمة اضواء باهتـــة تنبثق فجأة من قلب الليل ، تلتمع كيراعة ثم تخمد . . وتتحرك وراء النوافذ هياكل ضخّمها نور قناديل الكاز فبدت كأشباح مهولة . لا ادري لماذا يشبه ساكنو هذه الكهوف الجبلية في قساوتهم وغضبهم السريع كائنات اسطورية .

اي طقس لعين هذا ؟ العاصفة الثلجية لا تحتمل . . والسماء تبدو قرصا عظيما مدلهما لا منفذ ولا حد له . وانا انزع رجلي من الثلج السميك لا ضعها فيه . . وفكرت بشيء من الراحة انني ، بـــعد يومين ، سابتعد عن الجبل ، وربما الى الابـــد ، الف كيلو متر!! الى حيث يعتبر الثلج اسطورة وحلما ومنظرا ساحرا دافئا في فيلم سينما .. وحيث الارض سهلة لينة موحلة ثقيـــلة الظل.

امامي كيلو متر آخر حتي اصل الى بيت حمدذياب . .

انا احب هذا! الآذن الاعرج الصامت .. كأن في عينيه وشاربيه وبجموع وجهه شيء فطري قاس ووحشي ، ووراء القناع المجعد السندياني على وجهه الهرم .. كنت اشعر باعمـــاق رهيبة مظلمة مليئة بالاسرار .

كنت اقول له .

ــ هل تعرف بورتر ؟

ــ ومن بورتر هذا ؟

ــ لقد وصفك ..

ــ هل هو درزي ؟ . انا لم اسمع بمثل هذا الاسم في حياتي.

ــ انه شاعر انجليزي !!

واروح اددن بمقطـــع مـــن القصيدة : شجعان .. اباة .. وحشيون في الدفاع عن الحرية .

وهذه الجبال المتلفعة بالعواصف .. منازلهم ...

فيهز راسه وينظر الي باشفاق جامد .. ويقلب شفتيه بطريقة بعيدة قليلا عما يتوجب على آذن بسيط مثله ، ان يفعلـــه امام اساتذة مدرسته .

ــ قلبك فاضي ..

ويبتعد .

احسست بالدفء وانا اتقدم من الكوخ ومددت يدي وانا

امسك باليدين الخشنتين

ـ مرحبا ابو صابر

قال دهشا وهو ينظر الى السماء حوله

ـ ياميت مرحبا .. شرفتم .. وحدك ؟

.. وحدي

ـ تفضل .

ودخلت الغرفة الوحيدة .. تركت زوجته وامه مابيديهما من عمل .. ونهضتا لاستقبالي بترحيب شديد ،، ورفع ابنه صابر راسه من تحت اللحاف وابتسم لي ، ثم تابع احلامه وغاص في بحيرة النوم .

وزفر ابريق الشاي على النار المطقطقة المزغردة في المدفئة العتيقة ، وحدقت في عيني حمد الصريحتين .

ـ لقد جاء أمر نقلي !!

ـ أين ؟

ـ الى الحسكة

ـ بسيطة !!

وتنهد بهدوء ثم غمغم

ـ انذال ...

كان تقبلُه الامر على هذا الشكل ، قد احرجني قليلا واشعرني بشيء من خيبة الامل .. لعلي كنت احب ان ينفخ هذا

الآذن البسيط في بطولتي ، ويقول عني اشياء ترضي غروري .. ان يقول لي : لقد استطعت ان تهز الحكومـــة .. او ان المحافظ يحسب حسابا لك .. او ان الشيشكلي نفسه تدخل في امر نقلك.. ولعل هذين الكيلومترين اللذين قطعتهما في الثلج ، لم يكونا لعيادة الآذن الذي غاب يومين عن المدرسة ولا لتوديعه ، انما كانا طلبا لاحترام شخصي من الاخرين وحمد منهم على وجه الخصوص .

وردد حمد

ـ بسيطة ... الحسكة .. هه قريبة جداً.

ـ قريبة ؟ الف كيلو متر يارجل .. تحت المطر والثلج والـ...

ـ اقول لك بسيطة .. قريبة جداً

وقدم الي قدح الشاي وهو يهز رأسه

ـ هذا طريق صعب .. يجب ان تتعود عليه .

آلمتني لهجة المعلم الذي يقولها ...

ولكنني نظرت الى عينيه ... كانتا تلمعان كجمرتين :

ـ ذقنا قبلك مثل هذا وألعن .

ـ انت يا حمد .. احك لي .. في قلبك سر سمعت عنه

ـ ما قالوا لك عنه ؟

ـ من فمك احسن .

ورفعت المرأتان رأسيهـــا ونظرتا الى حمد في حنان عميق .. كانت الريح تعوي وتدفع بعض الدخان للخروج من المدفئة،

وشعلةالكاز تتراقص ملقية على الجدران ظلالا شاحبة ، والصمت يعمق ويعمق حتى ليسمع المرء دقات قلبه .

ظل حمد صامتاً مدة طويلة جداً ولم يفكر احد بانيجرح صمته.
« قصتي بسيطة .. ميت واحد تعذب مثـل ما تعذبت ...
ولكن لا بأس من الكلام فقد تسليك ..

كان عمري خمسة عشر عاما .. شاب يقدح زناد الارض ، عندما جاء مفزّع من الشام الى جبل الدروز ، دار بين المضافات يصرخ ، يا اهل النشاما الفرنساوي بميسلون ، وهب الجبـــل ، وتقاطرت البيارق على قرية السجن .. وفزعنـــا .. الوالد وخي حمود وانا ، كان عندي بارودة فلنطا تسوى ذهب، وكنت اصيب بها الابرة ، بيّتنا في قرية السجن منتظرين القطار ليأخذنا ، ونمنا على سلاحنا نحلم بذبح الفرنسويين ... اصبح الصباح تصبحون بخير، واذا بمخبر يصيح يادروز الفرنساوي طب بالشام ،انكمش قلبي ودمعت عيوني ، كنت احلم بالمعركة .. نكست البيارق ، ورجع كل بيرق لربعه .

أهلا وسهلا بالأستاذ .. العجوز هذه امي ، من عائلة عريقة من بيت ابو صالح كنت احبها للموت ، وذات يوم شتمتُ خي حمود لانه تكلم مع امه كلامـــا قاسيا ، فصفعني وضربني بقطعة حديد فجرحني . اخذت اختي تبكي وتضع رماد الاحجار على جرحي .. طلبت منها ان تعمل لي زوادة ، وهربت من البيت

غاضبا قاصدا أزرع فالشام .

كان معي كام مصرية ، استأجرت عربة وذهبت الى الربوة، فرأيت عسكر خيالة سوريين ، فارتعشت لهـذا المنظر !! كنت صغيراً وولداًاحلم بان يكون لي حصان. ذهبت الى المزة وتطوعت وصرت عسكريا بحصان وملابس براقة بزرار صفر .

طلب الفرنسيون عشرين جنديا الى لبنان ، واخذوني بالتنقية الى مار اليأس ، عسكر بيادق بدون خيل ، وصرنا نزق مؤنـة للجيش كالعتالين ، وطار الحلم الذي كنت احبـه : خيل .. سيوف .. بواريد. وذهبت مرة لا نقل المؤونة الى السجن فشربت قليلا من النبيذ ، فأمرني اليوتنان ان انقل برميلا من الزبالة فرفضت .. قلت له : انا عسكري ، وما يسواش أكون عتال ، فصفعني على وجهي ، وكان معي خنجر مجدلي ، فطعنتـه به في صدره. صرخ ووقع الى الوراء. قذفت بالخنجر وهربت ، ولكنني لم اعرف اين اذهب ، فرجعت الى ربعـي من الصواري ، كانوا من المتاولة والدروز والشركس ، ضربت اثنين من ربعي غضبا ، فلم يتكلم أحد لاني كنت شديد المراس بينهم .

دخـل خمسة فرنساويين فأخرجوني وبدأوا يعذبوني .. اجبروني على جر العربات في الرمـل ، وحرقوا رجلي واطراف اذني ، ثم اخذوني الى سجن ضيق في فرن الشباك كله مغاربـة يتقاتلون طول النهار ، ثم نقلوني الى سجن الرمـل .. جاءني

كابورال وقال اليوتنان صح وانا محاميك . وحكموني ستة اشهر سجن في فرنسا ، فأخـذوني الى « غرينوبل » فاشتغلت هناك بالاشغال الشاقـة وكنت أضرب واعذب كل يوم .. تمنيت ان يسرحوني بعد السجن ، لعن الله ها العلقة .. ظننت على ولدنتي العسكرية خيلا وبواريد وبخترة ونسوان .. لكن كلها ذل عند النذال . .

دنياك ما الها صديق وقرابي
ومن خلقة الايام الدهر دولاب
ودنياك ناعورة وفيهـا علابي
تمـلا وبتفرغ على فرد قلاب
وبيها سهول وبعـد بيها روابي
وعرة عسيرة السير عا كل طلاب

خلصت محكوميتي ، رجعنـا الى مرسيليا .. ثم ذهبنا الى تونس ، مجموعة من العساكر ما لها جنس ولا لون .. ثم وصلنا الى بيروت .. حنيت الى أهلي وقررت ابت القطيعة ، كتبت لهم مكاتيب اجابوني عليها . أرجعوني الى قطعتي .. وصرت انتقل من هنا الى هناك .. كرهت العسكرية والفرنسويين للموت .. حاولت الهروب انا وواحد صاحبي فقبض علينا ، وحكمنا سنة على الفرار ، قضيناها مرة كبذر الحلة في سجن الحميدية بالثكنة . اهلا وسهلا بالوجوه الحلوة .. اعلنت الثورة يا سيدنا وانا

برتبة عريف . كنا بالقريتين ، واذا بأمر بانتقالنا الى دمشق ..
عزمت على الفرار والالتحاق بالثوار في الجبل .. كانت اخبار
معركة الكفر ملأت الجيش .. وصار تذبيح الفرنساويين هم كل
سوري .. طلعت صداقتهم كلها كذب ونهب وسلب ،

من خبرة بين الملا والتجاريب
ما النا صديقا يارفاقي سوى السيف

نقينا الخيل وانا وكام واحد من ربعي ، ولكن جاسوساً اسمه
(...) وشى بنا ، وجاء محمود بنيان وكان رقيبا فنبهني الى
الوشاية . واخذ الفرنسويون يراقبوننا ، وصلنا الى القنيطرة ، ثم
ارجعونا الى دمشق . كانو يبعدونا عن الخطر .. ولما اشتعلت
حرب الغوطه امرنا بضرب الثوار فتمارضنا وسمعنا اخيرا اخبار
الذبحة الكبيرة في المزرعة وعملنا حفلة سرية في المعسكر .. مش
قليل خمسة الاف فرنساوي ماتو على حجار المزرعة مع الدبابات
والمصفحات والسيارات .. مش قليل ابدا .

وثارت بني معروف واعوت عوى ذيب
جوعـان واستطيب لحوم المعاليف
وتلاطموا الجمعـين واضحوا محاطيب
وبالمزرعـة خلوا الجحافـل متاليف
راحوا جميعـا بالسيوف المحاديب
ذياب حلت في شـلايا الخواريف

كنت عازما على الفرار .. وكان معي بزناري ثلاث بمبات

صغيره . زرت مرة صديقا لي في الميدان ، فرأيت عنده دروز من جرمانا ، فأخذوا يشيرون علي ويضربون كفا بكف .فقلت لصديقي وايدي على البمبات شو الخبر ؟ فبكي صديقي واخبرني ان خي حمود كان مـــع الثوار في مهاجمة قلعة راشيا .. كان اول فارس وصل للباب وقتل عليه .. فاحترق قلبي .. خي حمود .. كان شب مثل الحديد .. مثل الزهرة .. ادرت وجهي كي لا ابكي .. فكرت ان اضرب بمبة على رأسي واخلص من الحياة .. لكن رغبتي بالانتقام ردتني الى الصواب .

نقلونا الى درعـــا ذات يوم بالقطار ، وتعاهدت انا وخمسة اشخاص على الهرب ،منهم اسد ابو فخر ومحمود ابو فخر وحمود نعيم .. اخذنا البواريد وهربنا في الليل صوب الجبل .. وسمعنا من بعيد صوت البوق يعلن فرارنا . اصبح الصباح علينا بخربا ، ووجدنا عصابة موسى القطامي ، جئنـــا الى السويداء وقربنا من بيت ابو نايف علي عبيد ، وكان عنده سلطان الاطرش ، فصار يسألنا عن درعا وقواتها ، وجاء ابي ، ودب الصوت برجعتي ، كان الناس يقدمون للعزاء بأخي وللتهنئة برجوعي ..

تحقق حلمــي اخيرا ، وانضممت الى الثوار . اشتركت في معارك سور ومجدل في اللجاة ، وعندما دخل الجيش محيــد ، رجعنـــا الى السويداء ، ثم صارت العصابات غربي لاهثة امام الخالدية . كنـــا نأكل الطحين ، نخلطه بالماء ونشويه على تنك

وكانت الطائرات تهاجمنا .

ويوما نحن في قرية الهوية ، ندبنا عادل النكدي الى الغوطة ، فنزلنا اليها وكنا نحو اثنين واربعين شخصاً ، وقعدنا بالقرب من دوما واتصلنامع عصابات دمشق ، وكان فوزي القاوقجي وسعيد العاص وغيرهم هناك . ثم تشتت شملنـــا مثل رف القطا عندما يضيع رئيسه وقت قتل عادل النكدي في قرية البويضة ، صرنا نتشاور اين نذهب ، كوّنا عصابة برئاسة مصطفى وصفي ثم طلع مصطفى على الجبل برفقة حسن الخراط وبعث لنا الامير عزالدين الجزائري .. واخيرا انتقلت العصابة الى الجبل،وتحصنا في منطقة اللجاة،وكان الثوار في الازرق بشرق الاردن تلاحقهم الطيارات بالبمبات ، وهجم علينا بشريحه ثلاثميـــة وخمسون عسكري وكنا خمسة عشر شخصا،وخاف علينا اهل شريحه وقالوا لنا اخرجوا .. لاتستطيعون قتال كل ها الخلق :

وان اجا العسكر يا صاحب وشي علينا ؟
يانار قلـــبي عالوحدة واش علينـــا
كم وكم من مدافـــع وشت علينا
واسكرنا والدما كان الشراب

ثم قالوا لنا ، هناك بعض العسكر طالعين من السويداء على شهبا، رحنا نهاجم.. كنا اثني عشر شخصا .. ترسنا وراء رجوم الاحجار كل واحد وحده واستحكمنا مليح ، وقلنا نقاتل بالحاله هذي اسكدرون كامل . لكن بقينا حتى الليل والعسكر ماجاءت،

نمنا على سلاحنا حتى الصباح ، استيقظنا وصرنا نأكل ، وفجأة سمعنا صوت الخيل، ورأينا العسكر تداهمنا، وانقلب الموقف فقد دوهمنا ، واشتغل فينا القواس مثل زخ المطر ..

يا وليفي ترى العمر غالي   نرخصه يوم سوق المنايا

اخذوا يصرخون فينا : سلموا تسلموا ، سلموا تسلموا .. كل ربعي هربوا وبقيت وحدي وراء الرجم في الخلاء .. كنت اريد الموت ومحروق قلبي على خي حمود، اخذت اضرب بالأم كركر.. حميت البارودة بين صوابيعي مثل سيخ النار ، وكان العسكر منتشرين يلاحقون الهاربين ويطلبون مني التسليم وانا ارفض :

والله ما ارضي عيشة بالنذاله

لو ان تقطع بالسيوف المشاطير

واحسست بشيء ساخن في صدري فنظرت ، كان صدري سابحاً بالدم ، ضربت رصاصة فطارت البارودة من يدي ، وشممت ريحة الموت ، وزاغ بصري ، ولم اسمع جيداً الاصوات حولي ، ورأيت اولاد الدروز فوق رأسي مختلفين بعضهم معي وبعضهم علي .. تمنيت الراحة في الموت ، قلت لواحد (يافلان) كمل علي .. اضربني رصاصة بدماغي .. فقال : آه يا حمد لا اصخي فيك .. استطعت ان امد يدي الى خنجري ، وقطعت الجنادات به ، فنهبوني نهبا وتركوني بالسروال فقط .

جاء يوتنان فرنساوي ودعس على صدري ببسطاره وسحب

فرد طاحونة واراد تقويسي فأوقفه احد الدروز وقال له : حمله عسكري لاتقتله ، جاءوا بثلج ووضعوه في حلقي ، وركبوني الى قرية المشنف ثم الى العجيلات ، وكان محمود ابو يحي يداهمها مع عصابته .. كان فارسا هماما مات في فلسطين في ثورة الست وثلاثين .. تمنيت ان ينقذني ولكنه تراجع امام القوة، وتلفتُ حولي فرأيت ربعي الذين كانوا معي وهم مكتفون أسرى ، فضربت رأسي بالحيط حتى اغمي علي .

سفّروني الى شهبا فأدخلوني الى مهجع المغاربة .. احترموني لما سمعوا قصتي ، ثم وضعوني بالحبس جريحا في ازرع ، وبعدها نقلوني الى المستشفى بالشام . ولما شفيت بعد اشهر ، اخذوني الى الحميدية حيث المحاكمة .

الله يمسيك بالخير .. حكموني ياسيدي عشرين سنة اشغال شاقة وعشرين سنة نفي في الغويانا الفرنسية .

دهـــري غـــدرني اصبحت أنـــا وحيـــد
ياحيف على عمر مضى واصبحت بالسجن وحيد
اطلب إله العرش الواحـــد الوحيـــد
نعـــود للديار ويكون عـــدنا اكبر عيـــد .

اصطف الجنود ، وتقـــدم اليوتنان والكولونيـــل فقطعوا ازراري .. همس في اذني اليوتنان : اطلب السماح من الكولونيل بدبرك، فرفضت .. رفع الكرباج وضربـــني على وجهي .. ثم سفروني الى بيروت وكان معي محمود نعيم واربعون شخص غيره ..

تذكرت اهلي ووطني وامي وبكيت .. وضعت يدي على حائط السجن وخططت بالسكين :

« انا حمدذياب من السويداء جبل الدروز، ارجو كل قارىء ان يدعو لي حتى ارجع الى ارض الوطن » .

ياحسرتي ناحت علينا النايحة والعين تبكي والمدامع سايحة
من بعد طيب العيش والماء الزلال
صرنا بنشرب من البحور المالحة

قيدونا واخذونا الى المركب .. صرت انظر الى الشط .. لم يكن مخبّر من ربعنا ابدا .. امسكت المحرمة ولوحت بها وتخيلت امي واقفة .. كانت المسكينة تدفن اخي الثاني الذي مات، وتبكي ابي الذي مات اثناء الثورة ايضا ولم يبقي لها غير البنات ورضيع وانا . كان معي صورة خي محمود، بوستها وبللتها بدموعي وحملتها على قلبي عشرين سنة في المنفى

نزلنا بالمراكب واعتلينا وبحور مظلمة وحاطت علينا
وكنا بسور ومسيّج علينا انهد السياج وداسونا العدا

وصلنا الى مرسيليا يا سيدنا ومنها الى سجن بحري فظيع . جعلونا نعمل بشباك البحر مع عصايتين .. وكان الجلد والضرب هما لغة التفاهم بيننا .. قعدنا تسعة اشهر بالسيلول، وكل منا بغرفة متر بمتر .. وكانت ابوابها تغلق كلها بقيد واحد .

نقلونا الى بلد ثانية «سان مارتان دوبري» واعطونا لباسا مثل

القرود . كنا من كل الاجناس : سوريين ومراكشيين وتونسيين وطليان والمان واسبانيول وصينيين وبلجيك وفرنسيين محكومين .. لقد كانت وجبتنا تعد الف وسبعمية جاءوا من كل الدنيا الى جزيرة اللعنة الابدية جزيرة الشيطان . »

سكت حمد ذياب وغامت عيناه .. كانت ملامحه تتهدل وشارباه اهتزا في بؤس كمن يبعد عن ذهنه اشباحا راعبة تطارده .. وسمعت في تلك اللحظة شهقات عميقة .. لقد كانت امه تحاول كبت دموعها .

« هل سمعت بالغويانا ياسيدنا ؟ انت تلاحظ انني ارتجف .. انها بلد ملعون مطعون لا يمكن ان يعيش فيها انسان .. كانت الامطار تنزل عشرين يوما كاملة كالسيول مع ان درجة الحرارة (٤٠) شتاء وخمس وخمسون صيفا . كان السجناء يموتون تحت ضربة الشمس مثل الذباب .. الاحراش والاخشاب والحشائش السامة في كل مكان .. فيها قهوة وموز ومطاط وكاوتشوك ، وسكانها سود عراة تماما يخافون من البيض خوفا شديدا ، وكان الفرنسيون يتسلون باصطيادهم بالبنادق .. كان عندنا ضابط يسجل في مفكرته بفخر عدد السود الذين يقتلهم يوميا . عندما تركت الجزيرة كان الرقم ٤٣٠ رجلا .. اما الحشرات .. فقد كانت كثيرة وكان هناك .. حيايا .. حناش ، نمور ، اسود ، بعوض !! . اعوذ بالله .. جهنم على وش الارض .

وصلنا بلاد جدي لم وصلها   وشفنا وجوه لم نعرف اصلها
وبلاد العرب لازم نوصلها   ونشوف العــدا يوم اللقا

عندمـــا وصلت كان وباء فظيـــع في الجزيرة .. مات منـــا العشرات.. وفرقنا وبدأنا العمل .. اتعرف ما هو الشغل ؟ هناك ثيران قوية جدا يسمونها « البلوكور » تجر الاخشاب .. استغنوا عنها ووضعونا مكانها بالفدان . كنا نقص الاشجار ونحملها على اكتافنـــا عشرين وثلاثين كيلو مترا الى النهر .. البسونا القشط والحياصة .. وكنا نمشي الواحد اثر الاخر بحملنا الثقيل .. واحد اثنين .. واحد اثنين ونجر الخشب نحو النهر والاحراش كلهـــا هضاب ومنحدرات .

وذات مرة ونحن ننزل هضبة وقعنا . كنا اثني عشر شخصا نحمل شجرة كبيرة .. وجرتنـــا نحو الوادي .. وقتل منا اربعة وسحقت رجلي وهذا هو سبب العرج الخفيف الذي تراه .

ولكن هذا الشغل سهل بالنسبة لجرعربات الحديد .. هناك عربة تمشي على خط حديدي وفوقها كرسي ، وكان لها عصا تسع اثنين من الذين يجرّون، فكانا يدفعانها مئة كيلو متر تقريبا.. واذا ماتا يبدلان .. لقد كانوا يوفرون المازوت بهذه الطريقة .

ويوما بعـــد يوم .. وشهرا بعد شهر .. وسنة بعد سنة .. اخذنا نشتغل ،كنت اعمل بكل همة حتى لا اضرب .. ان ضربة واحدة كانت بالنسبة لي اهانة دونها الموت .

والدهر منا ممسكا بالتلابيب   والله رحمنا بالنفوس الكبيرة

وكان الحاكم العام يتبدل كل سبعة اشهر ،وعندما جاء الحاكم شانيل بزوجته الى الجزيرة رأتنا واقفين ذات يوم نستريح .. قالت لـــه وهي تبكي « انظر الى هؤلاء البؤساء ياشنيل » فأسرع بفك خياصات الثيران وارتحنا من وقتها من « شغل البقر » .

وكان معي من الجبل حسين العاقل ، جاء بعدي الى هنا وهو الان يعمل عتالا على بور بيروت ، وكان معي يونس جربوع .. مات المسكين هنالك ، وشكيب عبد الصمد من بعقلين من لبنان، وكنا نلتقي كل خمس سنوات مرة .كنت اعيش على امل و احد .. امل ان اعود للوطن ، وارى امي واخوتي .. كيف اخي الرضيع الان؟ هل هو حي؟ سأرجع واقضم حجرات الجبل كالحشيش .. لقد انزويت محاولا الا اغضب هــؤلاء الوحوش .. فالغضب معناه ان يؤتى بالمغضوب عليه ، فيأخذ مجرفةومعولا ويقال له احفر هنا .. حتى يحفر قبرا على قده، فيقتل ويدفن فيه ، ويكتب عنه انه مفقود .

كنت اعمل ، كما قلت لك ، بهمة ونشاط كالآلة .. وفي ١٩ نيسان ١٩٤٠ اخرجوني من السجن وحلمه الرهيب وبدأت سنوات النفي .. ولكن عفي عني بعد الحرب الكبيرة..استطعت ان اوفر كام مصرية من شغلي هناك وساعدني صاحب اسمه حسين محفوظ من جبل الزاوية من قرم الجوز .. فقد عمل بعد انتهاء محكوميته بتجارة القماش ، وتزوج من امرأة يابانيــة مسلمة من الجزيرة ،

فأعطاه اهلها المال واكرموه .. فأعطاني ٤٠٠ ليرة لاستطيع الرجوع الى الوطن .. هل اري الوطن من جديد ؟ وبدأ قلبي يخفق .

وقلبي يرفرف مثل جنح الحمامي
وجسمي نحل وغديت جلداعلى عظام

كنت اخاف ان اموت هناك في الارض الملعونة ، وابحرت وانا غير مصدق ، اتلفت الى الوراء وأقيء دما ، متمنيا ان يسكت عني الدهر لحظة واحدة .

علامك يادهر حليت برمة دواليبك عالمسكين برمت
ياويلي من الحبل لو حل برمة باويلي من الدهرلو انطاقفا

وصلت الى مرسيليا .. كان على الرصيف باخرة ذاهبة الى الغويانا وكلها جزائريون ومراكشيون وتونسيون .. صرت ابكي لهم .. صاروا يسألونني عن الغويانا ويطعمونني ويسقوني .. سألتهم عن بلادي فقالوا انها صارت مستقلة فأخذت اضرب رأسي بالجدران واقبلهم وادعوا لهم بالخلاص .

وعندما وصلت الى باريس ، ذهبت الى القنصل اللبناني واسمه عدنان الداعوق اعطاني مالا . وتعرفت هناك على مراكشيين فنزلت عندهم .. كانوا يكرمونني ويتأثرون لقصتي .. قالوا لي ان هناك شحنات كبيرة من ابناء وطنهم ستنفى الى الغويانا لانهم مجرمون سياسيون .. وسألني واحد منهم عن اخيه المنفي فلم اعرفه ..

ثم ركبت البحر .. وداعـــا ايتهـــا الديار اللعينة .. وداعا يامستعمرين .. وداعـــا يامصاصـــين الدم واتجهت الباخرة الى بيروت .. الى بلاد العرب التي صارت حرة ..

عندما وصلت الى بيروت .. لم استطيع النوم طول الليل .. لم يقبل صاحب الاوتيل ان يأخذ شيئاً .. جاءني محمد عبد الكريم، صديقي في المنفي، وقال وهو يبكي .. تصدق ياحمد انّا في الوطن؟ ماجاوبته بغير الدموع ... لاوالله ما صدقت رغم اني سمعان اللغة العربيـــة .

ومنـــذ الصباح ركبت الى الشام .. رأيتهـــا متغيرة كأني لم اعرفها .. لم يكن احد في كل الجبل يعلم بخبر عودتي .. ما قدرت آكل لقمة واحدة .. درت ودرت حتى سمعت لغـــة درزية .. واذا بثلاثة من المقرن القبلي .. واذا بشحص يسمى مرشـــد بن ابراهيم المرشد قلت له .. منين انت ؟ قال من السويداء .. فخفق قلبي وهجمت عليـــه بوسه .. وقت عرفني تلمسني من دون مـــا يصدق .. قلت له منين عرفتني ياصاحب ؟ قال حكالي بيي عنك . بكيت .. هذا جزائي اذن .. بكيت من الفرح .. الناس هنا ما نسيوني في وطني ويحبوني .. ويذكروني .

دلني على اوتيل حسن سنيح .. واذا بجماعة كثيرين جالسين .. عانقوني .. ورأيت بو نايف علي عبيد يمسك بكفي ويرص عليها .

رجع كل الماضي الى ذاكرتي .. قلت لهم يا صحاب فيه مين يخبرني عن خي سلمان ذياب ؟. سلمان الذي تركتـــة رضيعاً يوم

نفيت ؟ قالوا لي هو جندي في فوج المدرعات .. فلم اصدق .

سهرت الى الصبح .. وشربت ثلاثة باكيتات تاطلي غليظة ، وكنت اقول : هل انت طيب ياخي سلمان .. هل ارى وجهك؟ ذهبت في الصباح الى سوق الحميدية .. ثم الى القابون .. وكانت الاخبار قد وصلت ، فخبروا اختي في حمص، وكان زوجها عريفا هناك .. وعندما رجعت الى الاوتيل ، اذا بحرمة ترمي بنفسهـــا علي .. واذا هي مرت عمي .. قالت اخوك سلمـــان ينتظرك ؛ والتفوا حولي مثل القرندس .. واذا باثنين من العسكر .. عرفت اخي على الفور من لاحته .. ضممته بشدة وبست شواربه ولمست على جسمه، كان شب يملا العين .. حبست دموعي حتى لا يشعر بضعفي .. صرت ارجف مثـــل تبنه بالمهبوب .. نمت واياه .. وكنت كلما افقت ارى اخي ساهرا .. يتأملني ويدخن .. شوبلك يا خي سلمان ؟ قال مش مصدق انك خي حمـــد !! قلت بكرة بتعرفني ياخي املك .. وصرت اقول له العلامات التي اعرفها .. واسألو عن احوال الجبل وسوريا وبلاد العرب .

وصلنا الى السويداء .. كنت لا استطيع الجلوس على مقعد السيارة ، واذا بالاولاد يلتفون حولي ويهزجون :

عالمزرعة يا شباب   لنلاقي حمد ذياب

وصلت الى الدار وارتميت على امي ربع ساعة .. عرفني الكبار والصغار أنكروني .. والتمّت العباد علي

كان هم امي مسألة الضنا والولاد فرادت تزويجي .. قالت بدي افرح بولد منك قبل ما اموت .. قلت لهـا اني لا انفع يا امي .. صار لي خمس وعشرون سنة ما قربت فيها على امرأة .. ولكن كما ترى مشي الحال وجاء مخدومك صابر .

بعد عشر ايام بعث لي خبر سلطان الاطرش..اعطاني مكتوب توصية ، ثم عينوني آذنا بميت واسطـة .. آذن بثمانـين ليرة سورية .. نعم ياسيدي كما ترى ... وجهـي انصفر .. آذن ؟. كان لازم ارتاح لكن البيت يحتاج للعمل .. قبلت ..وما شاورت احد .. ولم اتظلم ومثل ما قال المثل : شوعلمّك عالمر؟ قال هلّلي امرّ منـه ..؟ .

* * *

الريح لا تزال تعصف بالخارج ...وهسيس الثلـج مكتوم اصم ، والخشب يطقطق ويطقطق ، وينشر دخانه رائحة حبيبة فطرية .. ما اقرب الابعاد .. ثمة اشخاص يتقدمون ، وصوتهم يطعن قلب الليل كسكين مرهفة .. كان صوتهم ينفذ قويا عمقا خلال المصاريـع الخشبية المتخلعة التي كنـا وراءها .. كانوا يتحدثون بمرارة شديدة، ولكن كم كان هذا الصوت حقودا وقاسيا ومليئا بالعزم !! .

١٩٥٧

شتاء قاس آخر

يا الهي ما أطول ليل الظلم ، وما
أقسى شتاءه

[هايني]



أنا شخصياً أحب شجرة الليمون اللطيفة التي تعيش في بيتنا ، ولا أظن أنني عقدت صداقة مع شيء في الدنيا ، على مثل المتانة التي عقدتها معها . كانت تشبه أميرة رقيقة من الأميرات اللواتي كنت أقرأ عنهن في القصص، اميرة حقيقية شامية ، تجلس على أريكتها وقد تدثرت بحرير أخضر .. النوافذ مفتوحة على جبال خضر ، والكتاب الذي بين اصابعها النحيله، موشح بضفائر من الديباج الأخضر تنوس ثم تتكىء ، في دعة ورخاوة على أطراف معاصمها التي تبرق باللآلىء .

كانت أرق من أن تتفلسف ، بل كانت تعيش ببهجة فقط ، والجواري من حولها يدخلن ويخرجن في خفة الطيف حتى لا تؤذيها الضجة ، ويدثرنها حائرات من العطر الزنبقي الأريج الذي يغلف

الغرفة بسحابة شفافة قوس قزحية ، وحينما كن يغلقن النوافذ في الليل الندي، حيث لاتزال أغاني الصنوبر الحزينة تنوح في مملكة الظلام ، يتركن السجف مرفوعات .. لتتابع تحديقها وتأملها في النجوم بحكمة ..

يا لها من أميرة حقيقة !!

كانت أميرتي ضعيفة تترنح تحت ضربات الريح القارسة ، يالهذه الغول اللعينة التي تجلد أوراقها فتنتزعها في وحشية ، تاركة دمها الاخضر يتجمد على أطرافها دموعاً بلورية .

وتروح بقسوة عاشق همجي يعري حبيبته بأن يمزق ثيابها قطعة قطعة.. تدس أصابعها المثلجة المدببة الاظافر تخمشها وتتغلغل في ثناياها في نهم وغلمة فترتجف وتقاوم ببسالة. ألم أقل لكم انها أميرة حقيقية ؟

أخذت أرقبها بلهفة وهي تبرعم براعمهـــا الأولى ، يالأم الصغيرة العزيزة !! صحيح أنهـــا صارت تبدو متثاقلة تحت تأثير الحمـــل ، ولكن دلالهـــا كان ينتفض في الورق استعلاء وبريقاً وخضرة .. لكم أعبد اللون الاخضر .. هل كان ربي يتعب كثيرا لو خلق لي السماء خضراء ؟ . واصبح صباح واذا بالبراعم تنعقد على حبيبات صغيرة ، والأرض تحت الأم الجميلة ،مفروشة بأشلاء الزهر الذي مات ليعطي الحياة .

في ذلك الصباح ابتسم ابي ابتسامة صغيرة ، ونظر الى عيوننا

بهدوء ثم هز رأسه ، كنت في اعماقي اهزج انتصاراً فقد كان أبي يحتقر الليمونة وينعتها بالطفلة المدللة ، وكان يراقب نموها وصراعها لاعتناق الشمس بلا مبالاة تحز في النفس .. لم أفهم أبي .. لماذا لايحب أميرتي الحلوة ؟ هـل يمكن ان يشاهـد انسان غدائرها المرسلة ، وأوراقها المشتعلة خضرة ، وزهورها التي تقطر بالعسل ولا يعشقها حتى الموت ؟

كان أبي يقول :

ـ ان الليمون ضعيف رخو لايقاوم العاصفة . ويكفي سوط ريح خفيف ليجعل شجرته ترتجف ذعراً . انها مسلولة مريضة في حاجة دوماً الي من يساعدها ويسندها ، واذا جرحت سوقها جرحاً صغيراً ؛ نزفت منها الحياة قطرة قطرة ، دون ان تفكر يوماً أن تكظم ألمهـا وتداوي الجرح وتنتصر . انها تقف دوماً وكأن صاعقة مرعبة توشك أن تنقض عليهـا ، فترخي اوراقها المرتعشة كأذني حمار ذليل ..واذا ولدت الليمون لم تعرف كيف تمسك به ، ان اطفالهـا أنفسهم لايحبونها، وحطبها حينما تموت سريع الاشتعال سريع الخمود كعاهرة محترفة .. لأقل لكم الحق يا أولادى أنا لا أثق مطلقاً بالليمون ولكن انظروا الى السنديانة .. أية قوة وأى مضاء !!

كانت الدموع تترقرق في عيني ، وانا اسمع ابي وهو يلوك سمعة أميرتي ويمرغها بالتراب . فأثور عما يتوجب على طفل

مثلي من قوانين الاحترام للابوة وأنفجر :

ـ السنديانة ؟ حبٌّ هذه العجوز الهرمة المتسلطة على الحديقة الخارجية ما تشاء . هــذه العاقر المتوحشة القاسية الدردبيس .. ليأخذني الاله العظيم اذا كنت سقيتها بعد اليوم نقطة واحدة من الماء . لقد كانت طول عمرها لئيمة الى درجة لعينــة ، كانت تملأ جسدنا بالاشواك ، وتضربنــا أغصانهــا بدون لطف على وجوهنا . انها من البلاهة وانعدام الاحساس لدرجة أنني حفرت بالسكين اسمي عليها مرات كثيرة ، دون أن تصدر منها آهــة واحدة !!

انه من السهل على الانسان أن يلوك سمعة الاميرات دون أن يترك لهن مجال الدفاع عــن انفسهن . لقد جلدتها بقسوة وانت تعرف أنها لاتستطيع الانتقام .. يالّلعار ..

وانفلتُ باكياً من امامه دون ان ادع له وقتاً للجواب ، بعد الدهشة الكبيرة التي اصابته ، واغلقت عليّ باب غرفتي دون ان أجيب على خفق الباب مرات عديدة .

وأخذت أفكر في وحدتي :

ـ كم يشبه أبي هــذه السنديانة !! وجهــه المجعد ، وعيناه العميقتان المتأملتان في برود وتدّبر حوادث العالم، وصبره العجيب على تقلبات الدهر ووخزات الأيام ، دون ان يرى الانسان على وجهه أي تعبير عن الأشياء التي تفور في أعماقه ، وكرهه للضعف

والبكاء ، ومبـــادرته الى اصلاح ما أفسدتـــه المصائب باحتمال ودأب . كل هذا بدا لي وكأنه قد انشق من ضلع السنديانة ، ولم لايكون كذلك ؟ الم تقل لي امي أنها وجدتني بين ثنيّات الكرمة المعرشة على سطح بيتنا ، والـــتي لا تنقطع زنابيرها عـــن قرص العناقيد وإسالة دمها ؟ من المؤسف انـــني لم اسأل جدتي قبل ان تموت عن المكان الذي وجد فيه أبي وهو صغير ، لا بد انه كان في ضلع السنديانة وماكرهه لأميرتي الا لرقتها وليونتها وخصبها .

في تلك اللحظة نطّت قطتي من مكانها على الفراش ووقفت أمامي تهز ذيلها وهي تقوس ظهرها وتتثـــاءب ، وتكومت في حجري تاركة العنـــان ليدي تغوص في شعرها وهي تهز في لذة مغمضة عينيها .

ـ لماذا لايداعبنا أبي ؟ صحيح أنه يحبنا ويحنو علينا ، ولكنه لم يلامس شعري أبـــدا ويربّت على كتفي كما افعل انا مع هـــذه القطة .. الشيء الوحيد الذي يصنعه ، هو أن يعبس في صرامة كلما تندت عين أيٍ منا بالدموع ، لقد كان يكره الدموع بقوة، كأن الاطفال هم رجال كبار .. وكان يقول :

ـ يجب ان لا تبكوا .. سيأتي وقتٌ يُعتبر فيه بكاء الاطفال عادياً .. أما الآن فهو عيب كبير .. يجب ان تتعودوا على الصبر .

وعندما ماتت والدتي .. وملأنا البيت عويلاً وندباً .. كان جالساً في حجرته صامتاً ، وعيناه عكرتان غامضتان تحدقان في

الفراغ ، لم تنزل منه دمعة واحــدة ، هل كان لايحب أمي حقاً ؟ صحيح أنه لم يتزوج بعدها وظل يقدس ذكراها . ولكنني لم اغفر له جموده ، وفي الاسبوع الماضي بالذات .. نهر أخي عادل نهراً شديداً لان قطعة من الخشب ثقيـلة وقعت فوق رأسه فصرخ متأوها ، فقال له ابي بقسوة :

ـ لقد أصبحت رجلاً .. والرجل الحقيقي لا يتأوه . وظل يومين لا يكلمه كلمة واحدة حتى كاد أن يمرض .. مسكين .. .يارب كم اكره هذه السنديانة !!

* * *

وعندما اقترب الشتاء، تدلّت ليمونات اميرتي القليلة صفراوات شفافات مليئات بالروعة .. كنت اقضي الاصيل دائماً في تأملها وهي ترقص بفرح مع النسمات الرطبة .. كانت الاميرات الصغيرات يتبادلن غزلاً رقيقاً وعفوياً مع الشمس الغاربة .. وكانت الأم تبتسم في سعادة وجذل ، حتى اذا وجدت ان الشمس قد اضرمت في القلوب الصغيرة المتفتحة للنور سعيراً محرقاً ، امتدت اوراق لامعة ندية ، ومسحت على الخدود الناعمة بلطف ثم غطتها من عيني الشمس اللتين تبدوان في بعض الاحيان ابعد ما تكونان عن البراءة .

وتقدم ابي من الاميرة يهزها بلطف وينظر الى السحب في

السماء .. ثم قال غامزاً وكأنه يكلم نفسه :

ـ الشتاء قاس هذه السنة كما اعتقد.. ارجو ان تحتمل الليمونة الصقيع اثناء حملها الاول .. انها تبدو وكأنها توشك ان تقع .

واحسست بكلماته تغوص كالسكـــين في صدري ، ودمعت عيناي فحاولت ان اخفيهـما عن والدي الذي كان يتظاهر بأنه ينظر الى ناحية ثانية ،وقلت وانا احاول ان اسيطر على اعصابي :

ـ انها قوية يا أبي .. انظر الى اوراقها كم هي غضة وفتية وفاتنة .. انظر الى جذورهــا الشابــة كيف تغوص في اعماق التراب .. انظر اليها كيف تطول قامتها يوماً بعد يوم .. انهــا اميرة حقيقية ياأبي والاميرات لايسلمن بسهولة .

فقال ابــي جازماً :

ـ اني لااثق بها ..

ـ ولكنها ستصمد ياأبي.. ستصمد ولن تدع شيئاً يهزمها، انها جميلة وحصينة، انظر كيف ترمش عيونها في عتاب وتحتــج على كلماتك !!

فابتعد ابي وهو يقول :

ـ ساعدها يابني ان استطعت.. اربط جذعها بحبل وخصرها بحبل آخر ناحية الجدار ، وكف عن سقيها كل يوم فان التربــة تصبح هشة سريعة التفتت امام قرع المطر .

ثم ردد :

ـ اني لاأثق بها .. اني لاأثق بالمدللين الذين لا يعرفون كيف يحتفظون بأطفالهم .

وعندما ذهب ابي ركضت الى الليمونة احتضنها واقول :

ـ ستقاومين .. اليس كذلك يا اميرة ؟ اثبتي ان الاميرات ينتصرن على العواصف .. لا تأخذي فكرة حمقاء عن أبـــي ياصديقة، انه حنون رغم جفافه، واذا صمدت هذه السنة، فسيحبك اكثر من السنديانة ، وسآتيك بطير من الذهب اتوجك به واجعله يغني لك كل يوم .

وهزت الأميرة اطرافها تحتضنني وتداعب أوراقها وجهـــي وابتعدت ابتهل :

ـ يارب احفظ لي أميرتي .. انت لا ترضى ان يموت هـــذا البهاء وان تحتضر هذه النضارة .. لقد قالت لي امي انك جميل تحب الجمال ، فاحفظ لي هذه الجميلة !!

وأجابني الله بقطرة من المطر .. لقد ابتدأ الشتاء

* * *

أخذت الريح المجنونة تلطم نوافذ غرفة سهرتنا بقوة عظيمة وتعول اعوالاً مرعباً . ازحت الستائر واخذت احدّق في قلب الليل كانت اضواء الغرفة تقع ضعيفة على اميرتي .. ودق قلـــبي

بعنف .. لكأن مارداً قوياً جباراً احاط عنقها بيديه القاسيتين وراح يهزها حتى ينتزع منها الحياة نقطة نقطة . وكانت تترنح وتميل بدون نظام ، وليموناتهـــا تتمسك بالاغصان بيأس ، امـا اوراقها فقد اخذت تتطاير وتغيب في الظلام ريشاً اسود فارغاً . وفي الجذع الطري كانت اصابعهـــا اللطيفة تقبض عـــلى التراب باستماتة .. وانهمرت دموعي واضناني العشق والخوف .

قال ابي وهو يمسك بالملقط ويخرج جمر الزيتون من المدفئة ويرصفه في المنقل وتجاعيد وجهه تزداد عمقاً :

ـ اني لااكره الشتاء ، لانه رغم ظواهره ضعيف مع مـــن اقوى منه .

قال اخي وهو يتدثر بعباءة ابي في عناية :

ـ اما انا فلا اطيقه .. ليخيل لي ان الاشباح تخرج مـــن اوكارها وتروح تلتقط الانس وترعبهم ، بل انها تجرهم معها الى جحورها القذرة .. فلا يستطيع الانسي ان يخرج الى النور مرة اخرى الا وقد اصبح شيطاناً مشبوهاً حقيراً .

فأجاب ابي بتأمل :

ـ ان الاشباح مخلوقات تستحق الرثاء ، وهـــي لا تستطيع التأثير الا على ضعفاء الناس ممن لايملكون اية قوة سوى الادعاء والغرور .. الشبح مثل الضبع يعرف رَجُله ، فاذا آنس منه الجرأة

والعزم ،انفلت منه هارباً ، اما اذا وجده مخلوع القلب قليل الايمان بنفسه وقوته ، سخره وبال عليه .

قلت وانا اغالب حزنـــي :

ـ انـــه لشتاء قاس !! ترى هل تستطيع ليمونتي ان تهـــزم الاشباح ؟

قال ابي وكأنه لا يعير كلماتي التفاتاً :

ـ انتم لم تعرفوابعد شيئاً عن الثلج والمطر والتجمد والرياح. لقد عشتم طوال الأيام الباردة الـــتي سبقت ضمن هذه الحجرة ، امامكم مـــدفأة عامرة بحطب الزيتون ، وتحتكم طنافس مـــن الصوف ومتكآت من جلود الغزلان.. انا خائف جداً يا اولادي من ان يداهمكم الشتاء ذات يوم، وانتم خارج هذه الحجرة فتقفوا عارين مقرورين امام العاصفة كمـــا تفعل السنديانة في الحديقـــة الخارجية ، وعند ذلك لايعلم الا الله ماذا ستفعلون .

قلت مذكراً :

ـ وماذا عن الاميرة يا ابـي ؟

سكت ابي قليلا وغامت عيناه كأنما ينظر الى شـــيء وراء الابعاد وتابع دون ان يرد على سؤالي :

ـ عندما ينزل الثلج كبيراً بحجم راحة اليد ...

رفعت الستائر مرة ثانية فرأيت بقعاً بيضاء تتداح في الهواء وتتراقص في العتمة .. كانت اميرتي قد اختفت تماماً تحت رداء سابغ من البياض القاتم فصرخت مقاطعاً :

ـ انه الثلج يا ابـــي .. قطع كبيرة بحجم راحة اليد انـــه غطى .. وخنقتني العبرات !!

فهمهم ابي في عبوس وهو يسعل :

ـ ليرحمنا الله .. هو ذا شتاء قاس آخر .

نظرت اليه طويلا .. ياله من عجوز غريب .. لكأن قوى سحرية تنفجر في اعماقه .. كنت ارتجف ذعراً وانا اتصور الثلج يغمر اميرتي ويقتل فيها حرارة الحياة ، ولكن ابي بدا وكأن اي شي في العالم غير قادر على ازعاجه .. كان جالساً وراء مدفأته والملقط يتحرك في يده على المنقل في مهارة ملاح يدير الدفة .. ولكنه اليوم كان يفعل ذلك ببعض الاضطراب . سألني :

ـ هل تقول انه ثلج بحجم راحة اليد ؟

كانت النار تنزلق وراء الخشب الميت وتلفه في تحلّق وقد احمرت عيناها شهوة ودماء وقضقض الخشب وانفتح قلبه .. وفجأة تعثر الملقط في يد ابي بطرف المنقل فانقلب الجمر على السجادة الثمينة ، وهرول اخي ليأتي بالرفش الصغير فلم يجده ، وحاول ابي رفعه بالملقط فتفتت ، وانتشرت رائحة حريق خانقة ، فمد ابي يده ورفع

الجمر بين اصابعه فصرخنا بفزع :

ـ حاذر يدك يا ابي ..

ولكن ابي تابع العملية بسرعة وصبر ، فاركاً يديه بعد كل جمرة واخذت اصيح مروّعاً :

ـ ان يديك تحترقان يا ابي لقد تفجر الدم منهما .

فلم يردّ .. لمّ الجمر كله دون ان تتقلص حتى عضلات وجهه حتى اذا انتهى، رفع وجهه الينا وغالب ابتسامة مصطنعة ولهث:

ـ لاتراعوا .. من يلعب بالنار يتوجب عليه ان يحتمل حرق اصابعه ..

واخرج منديله وفتح كفيه ليربط مكان الحروق . كانتا مسلوختين بشعتين ملطختين بالدم ..

لم احتمل المنظر .. فأغمي علي .

* * *

يارب ما اشقاني .. ماتت اميرتي الجميلة ودفنت دون احتفال او كفن من حرير. اخذت تحتضر اياماً طويلات دون ان تساعدها توسلاتي على الحياة.

تساقطت اوراقها الخضر بعد ان اصفرت وجفت وظهرت عروقها .. والليمونات الصفراوات تهاوت مشوهة مشقوقة البطن

وقد سال دمها على الارض ، منثورة مشوهة كجنـين مجهض . وبقيت اميرتي عارية كما خلقها الله بشكل مخجل، مقرورة كعصفور فاجأته حية فاصبح هيكلاً مجمداً من الرعب .. طلل بال اخـذ العنكبوت ينسج عليه خيوطه .. ولم تعد العصافير الغادرة تمن عليها بنظرة واحدة .

وذات يوم هوى ابي بفأسه عليها ، فانقصفت بيسر شديد كقطعة يابسة من الشوك .. اخذت اراقبه وانا اشعر بفأسه يحتز شراييني والدموع تنقط في قلبي داهية ملتهبة .. وعندما انتهى من المذبحة ترك اوصالها المقطعة الميتة ومال الي معزياً :

ـ لاتحزن ياولدي .. انها ضحية مسكينة من ضحايا الشتاء لقد قلت لك من قبل انها عاطفية شديدة النعومة .. اني لا أثق بالليمون .

فأجبته في حقد وتشفٍّ :

ـ وسنديانتـك العظيمة ايضاً فطست !! ألم تر كيف جفت وتساقطت اوراقها .. سأقطعها غداً كما قطعت اميرتي ..

قال ابي بضيق :

ـ لاتؤذ نفسك يابني .. ان حطب السنديان صعب القطع .. وقد تجرح نفسك .

ـ لقد ماتت واخذ الشيطان روحها .

قال ابي وهو يبتعد مختصراً النقاش وقد بدت في صوته رنة قلق حاول ان يخفيها :

– انها معتادة على مقاومة الشتاء والعاصفة. واظن انها ستعيش، انها سنديانة طيبة .

اخذت ارقبها كل يوم .. لم يكن في جذعها الابرش واغصانها الجرداء الجريحة اية بادرة من الحياة !! ولكنها كانت توحي لي دوماً بالكبرياء .. وفي الربيع استيقظت باكراً وركضت اليها .. فرأيت ابي واقفاً وكأنه قطعة منها .. ورفعت نظري الى الاغصان فصعقت!! ياللعجوز المتصابية اللعينة .. انها كالقطط بسبعة ارواح. ففوق كل غصن كان عود طري أخضر ملء بالزغب والورق الصغير ينتفض ويشرب من ضوء الشمس .

لم يلحظني أبي .. اخذ يربت بحنو ووجـد على جذعها ثم استدار نحوي .. وخيل لي ان دمعتين غزيرتين كلون السنديانـة تدحرجتا من عينيه الصارمتين فامتصتها سريعاً تجاعيد وجهه كما تمتص الاراضي العطشى صيب السحاب .

أواخر ١٩٥٨

سيدي الذي الأمين

١

يا له من عصفور عنيد
لقد فضل الحرية والتعب
على الراحة والذهب
(بوالو)



ها أنذا وحدي من جديد ..

مددت يدي وانتزعت السيجارة الاخيرة ، واخذت ادخن باستغراق وأتأمل الغرفــة حولي .. هــذا الضوء الخفيف الكئيب الذي لم اتعوده، يجعلني افكر جدياً بان اغمض عيني واحاول ان انام .. ولكــني شعرت بانه يجب ان افكر ، وان افكر تفكيراً عميقاً فيما انتهيت اليه ، يالله !! ما جدوى كل ما فعلته اذا كنت لم اتعود ، ان اغضي بصري عن هذا السقف الملون العجيب ، وان لا اشعر انني انام على سرير يئن تحتي كلما قمت بأقل حركة ممكنة ؟

كانت موسيقى راقصة بعيدة تتناثر الى سمعي مــن نادي الشرق الذي قالوا لي ان عينه لا تنام قبــل صياح الديك .. ولكني مع ذلك كنت احس بانني حزين .. بل بائس ..

هذه الكلمة التي فقدت مدلولها تذكرني دائماً بنفسي . بائس ؟ .. وماذا بعد؟ هل اطلب لنفسي رثاء أحد ؟ هـــا هنـــا في الغرف حولي ، انفاس تتردد بانتظام ورتابة ، ..رئات تتمدد وتنكمش وتحيا ، وادمغة ترى الآن ، مئات الاشياء الملونـــة المجنحة الـــتي تنطفىء في الصباح مع لذعة الشمس .

لقد نظروا الي بريبة في بادىء الامر ، وتفحصني الاولاد في قلق ، وانتحى الاب بي ناحية ، واخبرني وهو يسعل ويحاول ان لا يحمر وجهه ، بان بيته شريف وانه يريد ان يبقى شريفاً .. ثم افسح لي االطريق ليدلني على الغرفة .

لا بأس.. فأنا اعبد الاطفال لدرجة الجنون.. وانا اعلم تماماً، بأن أياماً قليلة ، ستجعل من هذه الوجوه الهزيلة الساذجة ، تتهلل عندما يظهر شبحي على الباب، وسأعقد تلك الصداقة التي اعرف يقيناً انها لن تتعدى ذلك اليوم ، الذي احمل فيه حقائبي وألوّح بيدي مودعاً ، وانا احاول ان ابدو رومانتيكياً حقاً .

اخذت اتأمل الغرفة حولي والموسيقى البعيدة لاتزال تتصاعد مع اغنية بلدية من مذياع مجاور .. هل سأبقى في هذه الغرفة حقاً ؟ هل سأنام واستيقظ ، واغسل وجهي ويدي ، وامشط شعري ، وآكل ، وأكتب .. مع هذه الجدران التي شهدت قبلي الف وجه غريب وهي ساكنة محدقة بعينيها البلهاوين ..

قلت لهم اني ساشاهد غرفتي قبل ان ارحل ، فسكتوا جميعا، وقالت اختي مديخة : انه ليس فيها احد ، فاندفعت ارتقي السلم

اليها .. آه ، ياغرفتي العزيزة .. يا للموجة الباردة الرطبة التي احسستها على وجهي وانا اراك فارغة !! تحتضنين بضع اوراق متناثرة هنا وهناك ، في فوضى واهمال ، وجدرانك التي كانت ناصلة ، اصبحت اشد ميلا الى القتامة ..

هنا كانت الطاولة .. وهناك السرير الخشبي الذي كان لايئن تحتي ابداً ،. وفي الزاوية ، كنت امد الكتب ، وهناك .. كنت اضع وجهي على بلاطك الاملس في اماسي الصيف، واحلم بألف حياة حرة عادلة ..

ابداً ياغرفتي العزيزة .. ابداً لن تقوم صداقة بعد، بيني وبين اية غرفة اخرى في العالم ، ولسوف اذكر الى الابدتلك الجدران التي كانت تقف صامدة في وجه الشتاء، تردهاعني بصلابة ووقار.

ليست غرفتي فقط هي التي ودعتني !! لقد شعرت بالبيت الفسيح كله يعتريه وجوم وصمت ... الارض .. والياسمينة .. والفلة التي وضعت لها السماد منذ يومين .. وحتى القطتان الصغيرتان اللتان كانتا لا تفتران تتصارعان وتنطان .. بدتا هادئتين .. واعينهما المدورة الجميلة مثبتة على شيء مجهول .

كم من الاشياء التي تبدو بسيطة سريعة.. لاتنفك تصبح معقدة متشابكة .. لقد كنت اريد ان ينتهي الامر بهدوء .. ولقد هيئت لذلك كل شيء ولكنهما .. مع ذلك ، اخذتا تبكيان كثيراً.

اقسم انني حاولت ان أَلم كتبي دون اكتراث ، وان أقسر

نفسي على الثبات ، ولكن هذه الدموع .. كيف استطيع ان اقاوم الدموع ؟. ما اشد ابتذال هذه الكلمة !! . ولكنها ، مع ذلك ، تلخص الحياة الشقية .

أدرت وجهي حتى لا ارى .. ولكن علام المقاومة ؟اخي .. اخي الصامت دائماً ، اخذ يبكي ايضاً .

خيل الي ان التحدث عن اشياء كثيرة تافهة ، قد يجعل من العبث التفكير في الحزن .. فاخذت أثرثر ، وان كان التأثر يعلو وجهي .. فتحدثت عن التفاني في سبيل المبدأ ، وان من الواجب ان نضحي باشياء عظيمة كي نصل الى غايتنا .. وقلت ان من الطبيعي ان انفصل ما دام هذا الاختلاف الهائل يسمم حياتنا ، ويجعلها عشرين حياة في سجن مظلم رطب . ولكنهم ، مع ذلك ، اخذوا يبكون كثيراً .

انقطعت الموسيقى الآن ، وخيل الي ان الضوء اشتد قليلا .. ولا تزال الانفاس المختلطة مع سعلة ضعيفة وبكاء طفل صغير تصل الى سمعي .. لا بأس ، ليئن هذا السرير تحتي ما شاء ، فان كنت لا استطيع ان ادخن سيجارة اخرى فلا اقل من ان اغسل وجهي الملتهب بالماء البارد .

قلت لهم :
ـ لاتنسوا فرشاة الاسنان !! .
فقالت مديحة بصوت خافت :

ـ لقد وضعناها !! .

وقالت سعاد ، اختي الصغيرة، وانفها اللطيف يلمع في النور:
ـ لقد كوينا لك ثيابك .. واصلحنا لك الجوارب .. اما القمصان ، ثم سكتت فجأة واستأنفت بكاءها ..

بدت الامور معقدة حقاً .. وكانت تختلط في كثير من السرعة وكنت احس بألم شديد في معدتي

ـ لاتنسوا شيئاً .. ارجوكم .. لا اريد ان ارجع مرة اخرى!

قالت مديحة :

ـ عندما تتسخ ثيابك .. ابعثها الي .. ارجوك ياخي .
وقالت سعـــاد :

ـ من اين ستأكل يامسكين ؟

من اين آكل ؟ هل فكرت بهذا حقاً ؟. الاكل .. الكي .. الثياب .. القمصان القذرة .. هذه الاشياء التافهة لم افكر فيهـــا مطلقاً .. ولكن لماذا التفكير ؟. لا يمكن التراجع الآن .

ـ لماذا .. لماذا فعلت ذلك ؟ !

قالتها مديحة في شبه صرخة .. لقد وجدت في النهار مئـــة سبب لتبرير ما فعلت .. اما الآن فقد شعرت بان اي شيء في العالم لا يوحي بالحماسة .. نعم .. لماذا فعلت ذلك ؟

ولم استطع ان اتصوره الا وهو يبكي .. لا إعرف كيف حدث ذلك .. لم أر ابي سوى مرات معدودات وهو يبكي ، وقت ان ماتت امي ، ووقت ان كنـــا نقرأ له المعراج وسورة يوسف ، واخذت تطاردني صورته ، وقد تدحرجت من عينيه العميقتين ، الصغيرتين ، دمعتان كبيرتان .. ورغم حاجبيـــه الكثيفين اللذين يغطيان عينيه ، خيل الي انه ينظر الي في حنان وحب ، اواه ياابي لماذا خلقتنا هكذا ؟

قلت بهدوء

ـ كيف .. هو ؟

فلم يجبني احد، وتوقف خشيش الاغراض بين يدي اخي وهو يحشر الكتب في الحقيبة ، واعدت بصوت واضح ..

ـ هل نام ؟

فأومأت مديحة وهي تمسح انفها وفمها بمنديل ثم قالت بلهفة :

ـ هلا حاولت . مرة اخرى ؟

ـ لا يمكن ياحبيبتي .. لقد انتهينا الا ترين كيف طردني ؟

.. ارجو ان يعيش مستريحاً ! .

ثم قلت بصوت جاف :

ـ ليحم روح اولاده ما شاء من كل الافكار الجديدة فقد

ذهب الغول

قال اخي بصوت عاتب :

ـ انت تطرفت كثيراً ياحامد .. وقالت مديحة :

ـ لقد كان يجب ان تدعه يعيش في هدوء .

ياأخوتي .. صحيح انكم بكيتم كثيراً ولكن ما فائدة ذلك اذا كنتم لاتريدون ان تفهموا ؟

لقد وقفتم ـ كالعادة ـ جبهة واحدة حتى في ساعة الوداع، عندما لمستم نغمتي القديمة التي تمس معتقداتكم .. هـذه الحزمة القديمة البالية من الجنون .. تماما مثلما كنتم تقفون متحدين امام الابن الكافر الخطر ، الذي كنتم تدعون له في صلاتكم مبتهلين ، ليندمج في هذه المجموعة التافهة من النفوس المستسلمة للخمول، والتي تعلق كل شيء بارادة الله ومشيئته .. اني اعرفكم ! اعرف تماما وجوهكم الخائفة المترددة حينما اتحدث اليكم ، وانتم تديرونها حولكم في قلق لئلا تُضبطوا وانتم تتحدثون معي .. ليس سهلاً ان تُفك ادمغتكم ويُعاد تركيبها من جديد .. ان هذا يحتاج الى وقت طويل ، كنت اريد ان اقول لكم اشياء كثيرة مؤثرة .. وان اقنعكم ان في العالم اناسا طيبين ، بسطاء . مظلومين .. يجب ان نفنى في سبيلهم ، صحيح انكم كنتم في بعض الاحيان تقفون في صفي ، عندما اصطدم مع ابيكم ، ولكني كنت دائماً في نظركم ذلك الضال ، العاق ، المطارد .. الذي يحتاج الى عفو الله ورحمته .

قلت لهم وانا اغالب آلام معدتي واشعر بحزن مغلق :

ـ هل .. انتهيتم ؟

فلم يرد احد ، وشعرت بالجو مشحوناً بأشياء غامضة حولي توشك ان تنفجر ، فادرت وجهي للحائط واستعددت للحظة الحاسمة .

ـ هل تريدون شيئاً ؟.

فهزوا رؤوسهم بالنفي وتشاغل اخي بقضم اظافره .

ـ لن اراكم كثيراً، ولكنني سأزوركم حتماً .. عسى ان يكون ذلك .. في السنة القادمة .

كلمة بسيطة ، عادية ، تجارية ، ولكن الجو تحول فجأة فأخذنا نبكي كلنا معاً .. واخذت انشج بعنف كأنما اعوض عن كل ما في قلبي من اسى ، ثم رفعت الحقيبة ، وسرت نحو الباب .. لقد كان من العبث ان اقطع هذا الشيء الحار الذي يحرق وجنتي ويذوب ملحاً في فمي ، وشعرت بيد اختي الصغرى سعاد تجذب كمي فافلت الحقيبة ثم اخذت اعانقهم واقبلهم ..

ـ سامحوني يااخواتي سامحوني .

ثم هربت نحو الباب وانا اسمع اختي تشهق :

ـ ليغفر لك الله !! ..

ليغفر لي الله ؟ لو قالتها في مناسبة اخرى لغضبت .. ولكني

في تلك اللحظة ، احسست انني في حاجة الى اي شيء ، ولو وهم مساعدة ..

وعندما اندفعت العربة، وسياطها تفرقع على ظهري الحيوانين الاخوين، كانت ذاكرتي تختزن كل الصور المؤثرة التي تجاهلتها في الداخل ..وجه مديحة الشاحب،وتقاطيع اخي المعروقة الحزينة.. وعينا سعاد اللتان تغطيهما الدموع .. وحاجبا ابي الشائكين .. لقد كانت كل صورة ، تدفعني دفعاً لان ابكي طويلا .. وماذا بعد ، هل البكاء من الضعف بالدرجة التي يتصورها الكثيرون ؟

والتفت الحوذي بوجهه الغامض يمعن في النظر ،واخذ يلتفت بحيرة مرة بعد مرة ، فـلا يجد منفذاً لحيرته سوى ان يسعل وان يفرقع بسوطه في الفضاء .

ياأخي الحوذي ، ترى بماذا كنت تفكر في هذا الشاب الذي كان يساومك قبل لحظات بعنـاد يريد ان يمتص آخر قطرة من ربحك الهزيل ، حتى اذا ما وصل ، اعترتك حـيرة ، وترددت طويلا قبل ان تمد يدك المعروقة ، لتأخذ الاجرة ؟ !

ها انذا وحدي الآن في غرفة راقبت جدرانها البلهاء ، الف وجه غريب .. انظر الى حوائجي المبعثر ، الساكنة تحت الضوء الكامد .. واتلمس للمرة العشرين علبة السجاير .. ناسياً انـني احرقت آخرها قبل ساعة . وحولي رئات تتمدد وتنكمش وتحيا، تقص معجزة الانسان .. واصداء الموسيقى البعيدة، لاتزال تشق

طريقها القصير الى سمعي ، والليل يجثم خارج غرفـــتي ويحاور الضوء الكامد في تشبث .

في جيبـي عشرون ليرة وجدتها فجأة.. لاشك ان اخي وضعها في جيبي خلسة بعد ان جمعها من عمله القاسي.. سأخرج من غرفتي هذه كالوطواط ، وابدأ صراعي المنتظر مع الجوع .

لا اريد ان افكر بالمستقبل ، فلديّ الآن ما افكر فيه ، اشعر بانني قوي رغم كل شيء . وانني وجدت ذاتي التي اضعتها منذ وقت طويل .. واحس ان عيوناً كثيرة تحدق فيّ بنظرات حنون مشجعة .. وانني وجدت طريقي المختفي بين الاشواك .

ترى هل تنتم الآن ياأخوتي ، بعد ان اتعبكم البكاء ؟ . ام مازلتم تفكرون في ذلك الراحل الذي ينام في غرفة غريبة بـــين اناس غرباء على سرير يئن تحته كلما قام باية حركة ؟

الريح الشمالية

٢

هبي هبي يا ريح الشمال
وأدفئي القلوب الوحيدة

[شللي]



أبداً تظل تومض تحت الرماد ، لاتحتاج الا لهبّـــة خفيفة من ريح شمالية ناعمـــة ، تلك الصلات ذات الخيوط الحريرية الناعمة التي تربط بعضنا ببعض . تتكاثف عليها ذرات سود كثيرة حتى لتخفي معالمها، وفجأة تتّقـــد ، كأنهـــا ماسة نادرة، تنشر الدفء والحرارة في الحياة .

الآن افهم لماذا وقفوا جميعاً يودعونني . . الأم بوجهها الذي يتكلف الصرامـــة ، فيطالب وعيناه قاسيتان بأجرة الغرفة ، وكان الأولاد اقل تحفّظاً ، فكانت أعينهم تدمع وهم يبتسمون لي ، ويدورون حولي ، ويتمسحون بي .

أما الأب فقد وقف ينظر الي في صمت وانا ابتعد في غبش الصباح الوليد ، وحسوني الذي تركته ، ذلك الطائر الخافق الأثير ، المتعشق دوماً للحب ، يصفق

بجناحيه للفجر ويهزج بأغنية الصباح .

ولما ابتعدت ،لم أستطع ان أقاوم ،لقد تركت قلبي هناك .هذا البيت المعتم قد ضم قطعة من حياتي . التفتّ لألقي نظرة أخيرة : كانوا واقفين امام الباب ، ورفعت الأم يدها في ضعف كأنها تحمل شيئاً ثقيلا ، وخيّل الي ان في عينيها دموعاً حقيقية .

ياأصدقاء الثلاثة الأشهر

سيفنى كل شي ، عما قريب، سيحتل سريري وغرفتي شخص جديد يبدأ صراعه معكم . ويبقى حيا في ضلوعنا جميعاً، خيط من العبير .. سلك من الحنان ، يدفع الدم الحار في عروقنا في ساعات الشتاء الطويلة ، حينما نستسلم للخمول ، وتسرح عيوننا الى ماوراء الجدران الصماء ، ويقول الواحد منا وهو يتنهد :

ـ ترى ماذا يصنعون الآن ؟

لن انقم عليك ياأم ذلك الصباح ، عندما أفقت فوجدت الغرفة شبه عارية !! لقد مضى من الشهر اكثره ، ولم تمتد اليك يدي بأوراق تحمل نسراً يحدّق في بلاهة .. أوراق كانت كافية ليشيع في عينيك البريئتين، ذلك البريق الذي أعرفه جيداً ، البريق الذي لايقاوم ، وعندما رأيتك في أعلى السلم ، أشحت بوجهك .. لعلك قد خجلت ياأم ؟ لا بأس .. لقد كنت دائماً تحتجّين بالصغار .

انك تريدين اطعام الحلوق الفارغة ، وكنت تقولين : الأب قد وقف عمله منذ شهرين، والشتاء قـد أقبل، جورج يحتاج الى ألبسة شتوية ، وأولغا قد اهترأ ثوبها اليتيم ، والخبز قد ارتفـع سعره ، والمدارس قد افتتحت ، ومعنى هذا ان يوسف يحتاج الى كتب .. الدهر لايرحم ، ثم تتنهدين وتلتفتين الى الاولادصائحة:

ــ الناقوس يرن .. تهيأوا جميعاً للصلاة الثانية .

وعندماعدت في المساء ، وجدت الغرفة وقد اعيدت الى سابق عهدهـا ، وأنّ الدرج العتيق تحت وقع خطواتك، ثم انتصبت واقفة على الباب وأنت تحاولين الابتسام ، وعلى يدك كأس من الشاي يتصاعد منه البخار ، ثم قدمته الي في خجل :

ــ لقد أجرنا الغرفة الأخرى !!

شخص آخر إذن ، مدّ يده اليك بالأوراق ذات النسر البليد .

شخص آخر اذن سيدفع ، لقاء حيطان أربعة تقيه هبات الشتاء؟

ولم أدر مـاذا أقول، وانما أشحتُ بوجهـي وانا أرشف جرعات الشاي بصوت مسموع .

وعندما ذهبت يا أم .. وتلاشى وقع خطواتك، شعرت برغبة قوية بأن أجري ورائك وأضمك الى صدري ، وابكي على كتفك طويلاً .

على أني بكيت في الليل

وتتالى نزع الأثاث، وتتالى ارجاعه، وكنت في بعض الاحيان أحس ان الغطاء الوحيد الذي تركته لي، لا يستطيع رد لسعات البرد القارس عني ، وكنت أصمت ، وأعرف انك هناك ، في الغرفة الأخرى ، تتقلبين ولا تستطيعين النوم كأن شيئاً يجثم على صدرك، ثم اسمع وقع خطواتك المترقبة المتلصصة على الدرج ، فاتظاهر بالرقاد ، ثم أشعر بشيء ناعم يلقى على السرير ويتمدد بعناية على جسدي المرتعد ، ساداً الثغرات التي يستطيع البرد الخائن ان ينفذ منها الي .. لقد رد الغطاء الآخر الذي نزع في الصباح ، وكنت اكتم انفاسي الثائرة ، حتى أسمع صوت زر الكهرباء وهو يطق فيسود الغرفة الظـــلام . على ان لم تقولي لي يوماً بصورة مباشرة « اخرج من الغرفة !! »

إلا في ذلك اليوم الذي اتفقت فيه مع اولغا على ان نذهب معاً في نزهة جميلة . كنت قد دفعت أجر الغرفـــة سلفا عن شهر كامل ، وخيل الي أن لي الحق في أن أستأجر البيت كله ، وكانت نزهة جميلة .. ضحكنا ولعبنا كالأطفال ، وركضنا كأننا مجنونان يظنان ان خطرا مجهولا يلاحقهما. وسمحت لي، أخيراً، ان أقبلها.

ورجعت الى البيت وحدي ، بعد رجوع اولغا بزمن طويل حتى اوهمك يا أم أني كنت في الجامعة .. ولكنك كنت مقطبة، فأحسست بذعر خفي وصعدت الى غرفتي سريعاً واخذت اتشاغل برؤية المارة من الشرفة، وعرفت أنك ستصعدين . ولكنك ترددت طويلاً ومر وقت قبل ان اسمع الباب وهو ينقر بتقطع :

.. لقد رأوكم !!

وخاطبتني في جفاء ، وأنت تشيحـــين بوجهك ، كالعادة ، ناحية الجدار ، وخيل الي انك تتالمين كثيراً .

ـ لقد كان من الواجب عليكما ان تقولا لي .

وتكلمت طويلا ياأم ، وكان في كلماتك ما يؤلم ، وكنت تقولين بارتباك :

ـ انا واثقة منك ، ولكن ماذا يقول الناس ؟

وكان يعنيك اكثر ما يعنيك أمر زواجها ، وكنت تلحين على السمعة ، وتتحدثين عن متاعب الأم بالبنات ، وتتمنين لو أنك لم تنجبي أطفالا .

ـ عندما يسمع الناس ، أنها تخرج مع الشباب فلن يتزوجوها .. أبداً لن يتزوجوها . وكنت ترددين :

ـ انا واثقة منك . ولكن ماذا يقول الناس ؟

ياأمي .. ياصديقتي .. لقد كان من الطبيعي ان تتطلعي الى بعيد ، الى الأشياء التي لاتخطر على بالنا نحن الشباب مطلقا . ثم تحدثت بحياء عن اختلاف الدين ، وعدت من جديد الى اسطورة الناس .

وعندما ذهبت ، تركت على الطاولة أجرة الغرفة المدفوعة !!

ولكنني كنت أعرفك جيداً ياأم

ففي الصباح ، كانت يداك تقدمان الي القهوة في حنان ؛ وفي عيونك ما يدل على انك قضيت ليلة قاسية مع ضميرك ، وقبل ان تخرجي ، لفتُ نظرك الى انك قد نسيت شيئا على الطاولة .

وترددتِ قليلا ، ولكنك مددت يدك وأخذتها .

وأخيراً .. نجحتُ في الجامعة ، وكان النجاح معناه تغير كل هذه الحياة الفقيرة البائسة التي أحياها ، ولمّحت لك أنني قد اعيّن خارج دمشق ، ورأيت الأسى الحزين في عينيك المتعبتين ، وكنت تسأليني في امل :

ـ هل يمكن ان يضعوك في دمشق ؟

وكنت اترك لك بعض الأمل ، واجـد لذة في ان ارى في عينيك دائماً تلك اللهفة التي تحاولين اخفاءها ، وصرتم تدعونني الى قضاء السهرة في الغرفة الخاصة .. معكم .

لقد اصبحت واحداً منكم ، كما كنت تقولين ، وكنت تعلمين يقيناً : ان أي واحد غيري ، سيدفـع في الغرفة اكثر مما أدفع ، ولكنك كنت تسأليني دوماً بنفس اللهفة :

ـ هل يمكن .. هل يمكن ان يعينوك في دمشق ؟

وكان من الممكن ياأم ، ان تهملوني ، بعد ان عرفتم أنـني سأذهب بعد يومين ، ولكنكم استطعتم ان تبعثوا في قلـبي ذبحة الألم ، وانا أراكم تأسون أسى حقيقياً على هذا الجار الذي لايمكن

ان يقال عنه يوما انه زبون طيب .

سمحت لي ان أخرج مع أولغا يوماً كاملا ، وقضينا الليلة البارحة ونحن نتحدث ، وكنت تقطعين الحديث وتسألينني :

ـ هل هناك جوارب لم ترتق ؟

او تقولين وأنت تتنهدين ، وقد فارقك ذلك الحذر امام زوجك الصامت :

ـ هل ستذكرنا ؟ هل ستكتب الينا ؟

* * *

ها هي ذي أشباحكم تنأى عن بصري ، وانا اتهيأ لأغوص في المنعطف الذي سيغيبكم .، اختفى شبح الأب ثم الاولاد ، ولم اعد أرى من بعيد سوى وجهك العطوف ، ووجه اولغا الطفلي الحبيب ، ورفعت يدك للمرة الأخيرة ولوحت بها ، ثم اختفيت بسرعة ! ! لماذا لم تستطيعي المقاومة ؟

الآن سأنطفىء من حياتكم ، وسيدخل الى قلوبكم المفتوحة للعطاء كثيرون غيري . وانا الآخر ، سأنسى، في خلال الأحداث المتراكمة التي يدعونها زمنا وعمراً وهموما ،تلك الأشهر الثلاثة التي عشت فيها قسماً من هذه الحياة التي لانعطاها مرتين . وسنكبر ، ونشيخ ، وسنصبح آباء ، وقد يصبح لنا احفاد ، ولكن .. ذات

يوم ، والرصيف ممتلىء بالناس وبعشرات الوجوه ، يبرز لي وجه من وراء الضباب ،وأبتسم له دون ان اعرفه، واحاول انأتنسم من خلال اكداس الذكريات ، تلك الملامح المألوفـــة . وأرى بالمقابل الوجه ترتسم في عيونه نظرة مستفهمة ، وسنمضي قليلا في السير ثم نلتفت معاً .

لقد تذكرنا .

وينبعث حنين دافىء يلون أهدابنا .

واحس بيد ابني او حفيدي تهزني بفروغ صبر ، وصوت ألثغ يسألـــني :

ـ من هذه يابابا ؟

واتنهد وأهز رأسي :

وتزيح سُتر خفيفة من ريح شمالية ناعمة، الغبار عن الماسة..

ونحس بجمرها يتقد في عمق اعماقنا ونهز رؤوسنا ونشعران الحياة جميلة وتستحق أن تعاش .

حفرة في الجبين

حيث يوجد المضطهدون .. هناك
عائلتي

[لنكولن]



عندما أدخلت أخيرا الى الغرفة، فتحت عيني حتى آخر مداهما لأرى جيدا في الضوء الخفيف الذي ينبعث من بلورة صغيرة لم أعهدها .. وكان يتمدد هناك، في السرير الذي كنت أنام فيه، ضئيلا يلفه اللحاف حتى رأسه .. وتقدمت ببطء وقلبي يكاد يتوقف عن الخفقان، واشعر كما لو أن شيئاً يخزني في ظهري. (لاشك انهم يراقبونني بفضول) ... وكنت اريد ان ارفع اللحاف لاراه، ولكني سمعت فجأة صوت اخي الاكبر يقول بصوت خيل الي ان فيه نهرة قاسية :

ـ اتركه نائماً . فرفعت يدي بحيرة وقلت : ـ الا استطيع ان اراه ؟ .. ولكن احدا لم يجب .. وسمعت صدى شهقات خفيفة، كانت من اختي دون ريب . لم ادر ماذا افعل .. فجلست . وسمعت

صوت آهة مكتومة ، فسادت الحركة في الغرفـــة .. وقفت انا. وتقدم اخي الاكبر .. أما اختي فقد تنفست بصوت مسموع .. ولكن الكومة سكنت فساد السكون من جديد . أخذت أتأمـل الغرفة .. لم أشعر ان فيها شيئاً جديدا سوى الفراغ الذي كنت اضع فيه الكتب .. ومكان الطاولة الذي امتلأ الآن بصحف عتيقة وقد وضع عليهـــا بصورة مشوشة بعض العقاقير والضمادات .. وتنحنح اخي كأنه يقطع حبل الصمت ، فقلت بهــدوء :

ـ كيف ؟ ... كيف سقطت قطعة الحديد ؟ فساد الصمت هنيهة ثم قال اخي بصوت لا لون له : ـ انــه قدر الله . وقالت اختي متنهدة : ـ يالطيف .. الله يجيرنا من ساعة الغفلة ـ ولكن كيف حدثت ؟ .. قالت اختي مندفعة ، وانا انظر اليها بطرف عيني : ـ كان واقفا ومعه سليم العتال ، امام رزمة من الحديد .. وحاول ان يرفع .. قال اخي مقاطعا : ـ رجعنا للحكاية ؟ .. يجب ان نتركه نائما فالراحة تفيده . نفس الصوت الذي سمعتــه من سنتين عدائيا حاقدا .. عندما حملت متاعي وغادرت البيت .. كان صوته يلاحقني كرصاص طائش .. وكنت اذكره تماما وهو يقنعني بصوت جاف ان أظل في البيت .. وكنت اعرف تماما انه يتعجلني للرحيل .. وأبي وراء شجرة الياسمين يجلس صامتا يداعب قطته المفضلة ولا يرفع وجهه ابداً ..

نذت آهة اخرى مـــن السرير ثم نزل اللحاف ببطء ورأيت وجهــه الملفوف بالضمـــادات .. ولم يظهر منهـــا سوى عينيه

المعكرتين .. وأدار رأسه فوقع نظره علي .. ومد يده يبحث عن يدي ، وتشابكت أصابعنا وانا أهمس بابتهال :

ـ يا أخي ...

وسمعت اختي تنشج بصمت ،ورأيت في عينيه دمعة جلية...

ـ قل لي .. هل انت احسن حالا ؟

فهز رأسه ثم قال بنبرة غريبة :

ـ لقد شوّهوني. .وسكت قليلا ثم قال : لو رأيت وجهي..

وتعالى نشيج اختي وهي تتمتم :

ـ يا ربي .. ماذا فعلنا لك حتى تعاملنا هكذا ؟

فقال اخي الكبير بقسوة :

ـ بدون كفر ..

قلت وأنا اقبل عليه :

ـ كل شيء هين امام سلامتك .. امام حياتك .. قل لي هل تتألم ؟ .. ولم يجب بشيء .. وانما اخذ يحدق في سقف الغرفة ، ثم قال في وهن :

ـ يجب ان ترى اباك ..

فوقف نشيج اختي ، أحسست بالجو صامتا صمتا عميقا .. وأجبت مطمئناً :

ـ طبعا .. بالطبع سأزاه ..

تنفست بارتياح .. وأحسست ان شخصا قد غادر الغرفة .. واقتربت مني اختي وهي تنظر الي بامعان .. ونظرت في عينيهاثم وقفت ومددت ذراعي بلهفة وأخذت اقبلها وهي تضمني بعنف:

ـ لقد غبت .. طويلا ..

ولاحظت ان الدموع تتجمع في عيني اخي ، فاخذت يـده وقلت :

ـ سأذهب الآن .. لقد زال الخطر والحمد لله وسآتي مـن وقت لآخر لأطمئن عليك ..

وقالت اختي :

ـ لن تذهب قبل ان تشرب القهوة .. لا يمكن ..

واندفعت مسرعة مغادرة الغرفة . قال اخي وقد اعتراه وهن شديـد :

ـ يجب ان ترى اباك .. عدني .

ـ اني اعدك ..

فتنفس بارتياح واغمض عينيـه .

خرجت من الغرفة ساعيا الى المطبخ وانا اشعر بالجو العائـلي القديم .. وسمعت وانا امر من امام غرفة اخي الاكبر صوته الحاد:

ـ ثمانمائة ليرة .. هذا غير تعطل المحل .

وساد صمت قصير كأنه يستمع فيــه الى من يكلمه ، ثم قال بحدّة .

ـ ولكن الحق عليه !!

عندما شربت القهوة في المطبخ اخذت أتحدث مع اختي عن العملية والدكتور فريشو ثم سألتها :

ـ هل ابوك موجود ؟

ـ نعم .

وعندما خرجنا من المطبخ وجدت اخي الاكبر في الصالون ..

فنظرت الى انيسة وقلت لها بصوت واضح :

ـ أين ابوك ؟

ـ في غرفته .

قال اخي بصوت حازم :

ـ انه ليس هنا .

ولما نظرت الى انيسة تابع :

ـ لقد خرج منذ دقائق ..

صافحت انيســة واتجهت صوب الباب .. ولاحظت ان صورتي التي كانت معلقة في الصالون قــد انتزعت من مكانها .

قلت :

ـ بخاطر .

قال اخي ببطء :

– شرفتم .. مع السلامة .

وأغلقت الباب بهدوء ، ولما واجهني هواء الشارع .. تنفست بملء رئتي ..

– ٢ –

– اني لا أعيلكم عبثا .. الاشغال واقفة .. وكل شيء في ركود .. لي زوجة واولاد .. وجيش من العمال .. لست استطيع ان اسمح لاي انسان ان يشيع التذمر .. اني لا أعيلكم عبثا .

ورفع ابي رأسه ، وخيل الي ان شيئا من الاعتزاز القديم بالنفس يشيع من عينيه التعبتين ، وتحرك شارباه بقلق وتعلقت انفاسي بشفتيه ، ولكنه تنحنح اخيراً ثم تنهد وساد صمت عميق ..

– طول عمري وانا ادير الشغل .. طول عمري لم اسمع شكاية عامل .. ياضيعة الاكل والشرب .

– ولكني لم أقل شيئا .. لم افعل سوى ان ..

قال ابي بصوت حانق :

– لم تفعل سوى تعطيل العمل .. هاه ؟ .. ما هي هذه الافكار التي تدور في رأسك النجس ؟ لقد فعلت كما قال المثل .. وكالعادة لم يقل ما هو المثل .

قال اخي الاصغر :

ـ انت تعلم يا بابا ان ..

قال اخي الاكبر زاجراً :

ـ اخرس انت !!

فاصفر وجهه .. وحبس دمعة في عينيه .. ثم نظر اليه نظرة منكسرة واطرق برأسه .

قال ابي :

ـ الحمد لله .. الله بلانا بالأصحاب .. انظر ابن عمك محمد ، دوما الصبح في الجامع .. عندما اراه اقول يا رب لماذا ابتليتـــني بهؤلاء الاولاد ؟ .. من أصحابـــه ؟ الشيخ عبد الرحمن .. وابن عبد الوهاب ما اسمه ؟

قال اخي :

ـ فؤاد !! .

ـ نعم فؤاد .. وانت من أصحابك ؟ كلهم لايعرفون وجه الله .. كلهم متكفون (وأشار بيده اشارة هازئة مرة) لقد حشوا رأسك بالافكار الكافرة ، لو كان فيك خير كنت الان متزوجاً وعندك اولاد .. وكما قال المثل ..

قال اخي الاكبر ، وقد قرب كرسيه مني بحركة سريعة :

ـ قل لي ؟ هل اعطي العمال اقل من الآخرين ؟

ـ ولكنهم يموتون من الجوع .. والمرض .

قال ثائرا بغضب يزداد حدة :

ـ طول عمرنا ما سمعنا ان احـــدا مات من الجوع .. انها ثروة ويجب ان نتدبر كيف ننميّها .. فوق مـا نشغلهم ونلقطهم من الشارع .. يريدون بعد ذلك ان يركبوك.. والله يا بابا ،صرت اخاف ان اسير بينهم .. ان نظراتهم والعيـــاذ بالله .. نظرات كافرة .. حقودة . ولقد صدق المثل : اتق شر مـــن احسنت اليـــه .

قال أخي الصغير مندفعا :

ـ ولكن الدين يأمرك بأن نحسن الى العمال .. كما قال الشيخ صلاح ..

فرمقه اخي الاكبر بنظرة محتقرة وقال بازدراء :

ـ لاتهرف بمـــا لاتعرف يا بهيم .. ليس في الاثر كـــله غير حديث واحد عـــن العمال .. اعط العامـــل اجره قبل ان يجف عرقه .. ولم يقل افتحوا لهم مستشفى.. وشغلوهم ثماني ساعات ، واخضعوا لامر نقابتهم .. واعطوهم كساء ودواء وطعامـــا .. كما يحاول اخونا بالله (واشار الي) ان يزرع في نفوسهم .. ثم التفت الى انيسة وقال بصوت آمر :

ـ هاتي ابريق الماء .. بسرعة .. فنهضت اختي متثاقلة وهي تنظر الى زوجـــة اخي الـتي انزوت ترقبنا بدون مبالاة . قلت بهـــدوء :

ـ ليس الامر بمثل هذه السهولة ، انك لم تخالطهم يا اخي..

إني اعمل معهم ولذلك افهمهم كل الفهم .. زوجة « ابي زكي » تضع طفلا سابعا له وهي مريضة بين الموت والحياة .. لقد رفضت ان تسمح له بيوم يقضيه في بيته، لانه يعرف انك ستقطع عليه الاجرة التي هو لا يستطيع العيش بدونها .. ليتك رأيته وهو ينظر بقلق الى الساعة .. ونظرته اليك .. انه لعمل وحشي ..

ـ وحشي يا كلب؟ . يا ضيعة الاكل والشرب فيك .. حرام علي النوم اذا لم أطرد هذا الخنزير غدا .. نظرته الي؟.أنا الذي التقطته من الشارع .. بشرفي لا اكون محسن ابن محمود اذا تركته ساعة واحدة غدا .. على كل حال ليس له تعويض لانه لم يتعد السنة ..

قلت بازدراء :

ـ مصاص دماء .

احسست بصفعة اليمة من يد ابي تهوى على وجهي .

ـ يا قليل الحياء .. لم تعد تستحي ..

بينما وقف اخي ثائرا :

ـ والله حرام اكلك وشربك .. لو ربيت كلبا كان فيه امل اكثر منك .. يا لئيم .. تأكل من مالي وتسبني ؟ .

ولكن الزمام كان قد افلت مني :

ـ انت يا سارق العائلة .. انت الذي استوليت على مال امك تغمز علينا بالإعالة ؟ .. السنا نشتغل عندك ؟ .. السنا نأكل بمعاشنا ؟ يا سارق .. لقد سرقتنا ، وانت الآن تسرق العمال . .

قال اخي بصوت هائل :

ـ علي الحرام تستحق الذبح .. لن تشتغل عندي بعد الآن .. والله بكسر الهاء لن تشتغل .

ـ عندك عندك . والله لقد تمنيتهـــا من زمان ان تخرج من فمك .. لن تراني بعد الآن .. بل لن اعيش هنا .. الله يبارك لكم في البيت .. اني سأعيش وحدي ..

ـ لجهنم وبئس المصير ..

قال ابي قاطعا الصراخ :

ـ الجيران يسمعون .. العمى .. طولوا بالــكم .

قلت بصوت مجلجل :

ـ كل يوم يمنُ علينا بالاكل والشرب ، ويعيرنا امام امرأته واولاده .. ولو ! . مـــا بقـــى عنده حس ؟. والله لن اعيش هنا ولا ثانية !!

واندفعت الى غرفتي كالمجنون وأنا ألمـــلم اغراضي بسرعة مرتجفة .. وكانت انيسة تشهق وتبـكي بهـــدوء .. بينما اخذ ابي يتسلى بالربت على ظهر قطته المفضلة .. وعندما خرجت صرخت بقوة :

ـ بخاطركم .

وبكت انيسة،وسكت ابي ..اما اخي الاصغر فقال بانتحاب :

ـ الى اين .. الآن ؟ وفي مثل هذه الساعة ؟. يا جماعة اخزوا الشيطان .

وانطلقت الى الباب ، واحسست بيد اخي الصغير تدس في جيبي قليلاً من المال .. وصوت اخي الاكبر :

ـ ارجع ولك يا مجنون .

وصوت انيسة يصرخ :

ـ اخي .. مصطفى ..

ولكني تابعت ، وقبل ان اصفق الباب ورائي سمعت صوته يقول :

ـ اتركوه .. غداً يرجع كالكلب !!

* * *

ـ ٣ ـ

من بعيد كان يلوح لي بقامته الفارعة .. ومشيته الخاصة التي يتمايل بها يميناً وشمالا .. وقدوضع على رأسه طاقية صوف .. وكان ينظر الى الشرفات والابواب متفحصاً ورأى يدي من بعيد تلوح له فأسرع الي .. ووقفت الجارة مدهوشة تنظر الينا ونحن نتعانق بشدة والدموع تسيل من عيوننـا ..

ـ الحمـد للـه على العافية يا سليم .

ـ الله يعافيك ..

وأمسكت بيده وادخلته الغرفة المتواضعة .. وكان يحاول ان

لا ينظر الى عيني بـل أخـذ يتشاغل بتقليب بعض الكتب على الطاولة ، ويتفحص أثاث الغرفة بنظرة مشفقة. وكان القلق يأكل قلبي أكلاً .. ولم اعرف كيف اطلب منه ان يزيح الطاقية قليلاً لأرى جبينه .. وكأنه احس برغبتي فأمعن في التشاغل بتقليب الكتب. وساد بيننا فترة صمت طويلة..قطعتها وانا ابتسم والتفت اليه :

ـ هل تعودت التدخين ؟

فابتسم وقال في تبلد :

ـ هذه الايام تجبر المرء على التدخين .

وبعد ان تناول سيجارة قلت فجأة :

ـ قالوا لي ان العملية كانت خطرة ! ! .

ـ لقد وهبتُ حياة جديدة.. تصور.. تسعون في المئة خطر ومع ذلك قد نجحت .. يخيل الي اني وهبت حياة جـديدة . ولكن . . كان اثرها مخيفـاً ، انظر

ـ كل شيء يسيط مع السلامة .. يا الهي ! !

لم استطع ان امتنع عن الشهقة التي ندت من اعماق صدري.. ولا شك ان نظرتي كانت غريبة حتى لقد ذعراخي وظهر اليأس على وجهه .. فمكان جبينـه الناصع العريض كانت الى جانب عينه اليسرى وفوق الحاجب مباشرة حفرة عميقـة .. جعلت شكل وجهه غريباً يدعو الى الاشمئـزاز ..

كان قلبي يدق بعنف وانا اردد بصوت ميت :

ـ بسيطة .. بسيطة كل شيء هين مع الحياة .

اتقد نظر اخــي وقال بحقد :

ـ انه يشغلني كالعتالين ، كان يمكن ان لا يحدث شيء لو انه ساعدني على حملها بعض العمال

ـ لاتقل هذا ياسليم .. انه قدر ..

استدار اخــي الى الحائط ويــده ترتجف بالسيجارة ثم قال بصوت مرير :

ـ انها بشعة .. فظيعة .. اني اخجل من ان اظهر هكذا بين الناس .. وتزايدت دقات قلبي وقلت وانا انظر الى السقف :

ـ ولو يا سليم .. متى كانت الرجال يهمها مثل هذه الامور ؟. المهم ..

ـ لاترفه عني .. لقد سمعت كثيراً من مثل هذا الكلام .

أخذ سليم يبــكي بحرقة وألم . ثم لبس مــن جديد طاقية الصوف حتى غطت جبينه ، وانتحى جانبا وهو يتابع بكاءه .. أحسست ان ايــة كلمة لاتستطيع ان ترفه عن نفسه المحطمة .. فأخــذت أذرع الغرفــة وأشعلت سيجارة جديــدة ناسياً ان سيجارتي لم تنته بعد ..

رفع رأسه بعد هنية .. وقد خجل مــن دموعه .. ثم ساد

صمت عميق قطعه سليم قائلاً

ــ لقد صار يهرب مني حتى الاطفال : رياض وصلاح وفوزية .. وارتد فكري الى اولاد اخـــي .. وتذكرت كيف كانوا ينتظرونه على الباب .. وهم يقفزون من الفرح ويزقزقون ..

ــ عمو سليم .. عمو سليم ..

وكان اخي يهجم عليهم فيحملهم على ساعديـــه ويغمرهم بالقبلات .. وهو يتلمظ وراء كل قبلة .. ثم بعد محاولات طويلة ينفض لهم جيوبه .. لقد كانت كل خيالاتهم الطفلية منصبة على ما في جيبه التي لم تكن يوماً فارغة .

ــ وخديجة .. تصور خديجة اصبحت تهرب من البيت عندما ازورهم .

ــ خديجـة ؟ العمـــى .. على رجليك كلهم. على ظفرك . كلهم خسيسون !! .. وبصقت بشدة ..

ــ ان اهلها يحاولون الآن فسخ الخطبة ..

ــ للصرماية .. لجهنم .. الف بنت تتمنى عليك ..

وتصورت خديجة التي كانت تتعلل بالحجج والاسباب لتزورنا ، والرسائل المضحكة التي كانت تكتبها لاخي .. وتصورت اباها يحلف بالايمان المغلظة على اخي ان يدخل وان يبات عنده كلما مررنا امام بيتـــه ..

قلت بتردد :

ـ الا يمكن عمل شيء ؟

رفع اخي وجهه .. وقد اضاءت عيناه ببريق باهت :

ـ لقد ذهبت البارحة الى الدكتور الذي على الجادة.. وأريتُه وجهي .. فبعد ان فحصني وسألني طويلاً عن العملية ، قال لي : في الامكان تصليح ذلك .. ثم افهمـــني انه يستطيع عندما يخثر مكان الجرح ان يشقه من جديد ويركب فيه نوعاً من العظام .. على نحو ما يعمل لطقم الاسنان وتعود جبهتي الى حالتها الطبيعـــة ..

فقلت وقد قفز قلبي من الفرح :

ـ اذن لماذا كل هذا الابتئاس ؟ .. قل هكذا من الاول .. اذن بسيطة .. هل العملية مضمونة ؟ ..

ـ نوعاً ما ولكنه طلب الف ليرة .

ـ الف ليرة ؟ .. الغمى .. لماذا ؟

ـ انه يحسبها عملية تجميل ..

ـ على كل حال سيدفعها طبعاً اخوك . انها من حقوقك .

ـ وهل تظن .. هـــل تظن انـــه سيدفعها ؟ .

ـ طبعاً انه مسؤول عن العطل .. اذا رفعت عليه دعوى تستطيع ان تقبض ضعفـــي هذا المبلغ عطلاً وضررا .

ـ رجعنا لحكاياتك القديمة .. اخ يرفع على اخيه دعوى ؟

ـ على كل انه يعرف القانون جيداً .. وسيدفع عن طيب

خاطر . استخفني الفرح وأخذت ادور في الغرفة .. اعرض عليه محتويا تها المتواضعة .. غير ان سليم زهـــد في ذلك ، ثم حدق في وجهي وقال بصوت متردد :

ـ ألن ترجع الى البيت ؟

وصمت .. فقلت وانا احاول ان ابدي عدم المبالاة :

ـ كيف .. ابوك ؟

ـ ممتاز .. انه يسألـــني عنك فأجيبه بأن رسائلك انقطعت عني .. فعندما كنت في حلب .. كان دوماً يتساءل عن اخبارك. ثم وقف متهيئاً للانصراف .. واشعل سيجارة جديدة .. قلت :

ـ زرني دائماً .

ـ ولو .. عرفنا المقر .. ستجدني هنا بين يوم وآخر . وشد على يـــدي بعنف كثـــير ، ثم استدار وخرج دون ان ينظر الى وجهي .. ووقفت انظر الى قامته الفارعة وهو يبتعد ، ولما بلـغ المنعطف استدار ونظر الي . ثم لوح بيـــده واختفى بسرعة .

* * *

ـ ٤ ـ

هدر احد العمال بصوت مبحوح وقد احتقن وجهه المتطاول:

ـ يعيش اتحاد العمال في سبيل حرياتهم النقابية . وجاوبـــه الحشد الزاحف كالسيل في اتجاه البرلمان .. وسمع من بعيد صوت

اغلاق الدكاكين العاصف .. وصرخ احدهم وهو يلوح بيديه :

ـ نظام يـا اخوان نظام . وضحك بعض الناس ، وصرخ طالب متحمس :

ـ ليعش اتحاد العمال .. وبصق احد المارة من الجانب ، ثم وقف وقد حجب غينيه بيديه عن الشمس وصرخ ملوحاً بقبضته :

ـ يالكم من خنازير .. ثم التفت الى رفيق له يحدجه بنظرة عابسة :

ـ يظنون انه ليس في العالم سواهم . وتسلق بعض الاطفال الجدران وهم يصفقـون ويغنون ويصفرون ، بينما كانت عجوز واقفة تحمل طفلاً مذعوراً .. وهي تبكي وتهمس :

ـ ليكن سيدنا الباز معكم .. وتساءل احدهم :

ـ ما الخبر .. العمى .. كل يوم اضراب ؟ . فأجاب عجوز :

ـ بدهم استقلال .

ـ يا لك من خرفان نحن مستقلون من مئة سنة .

وكان الحشد يدفعـني دفعـاً .. وانا احس ان الف روح تتملكـني .. لايمكن ابداً ان تفسر هذه الروح النارية التي تتملك انسانـاً وهو يلتصق بالآخرين الذين يشعرون بنفس شعوره .. ليخيل الي انني استطيع بقبضتي تحطيم الاشياء السيئة في العالم بضربة واحـدة .. وكان بعض الاطفال الذين تسلقوا الاشجار يغنون بمرح :

يا ظلام السجن خيم   اننا نهـوى الظلاما

كانت الهتافات المتناثرة هنا وهناك تتتابع مختلطة متشابكة غير مفهومة ، ورأيت احدهم يهوي بيده على رأس آخر ويصيح به آه يا خائن.. بينما يحاول الآخر ان يتوارى بين الجماهير . وصاح احدهم :

ـ الشرطة .. وساد بعض السكون ، ورفعت رأسي لارى الى اول الموكب الذي احسست انـه توقف .. وصرخ شاب معروق الوجه :

ـ سليـمان .. لنهرب ..

بينما رفع شيخ قوى البنية قبضته وهو يزمجر :

ـ ليكن .. الشرطة .. ناس مثلنا .. سنرد الضربة ضربتين .

وتردد صوت :

ـ ليسقط اعوان المستبدين .. وصرخ عجوز :

ـ آه رجلي .. محبة بمحمد افسحوا لي طريقاً .. انا ليستلي علاقة . وجاءت موجة شديدة دفعتنا الى الوراء ، ولمحت بـين الوجوه القريبة وجه (ابي زكي) .. فابتسم لي ثم جاهد حـتى وصل الي :

ـ مصطفى .. مصطفى اخوك معنا ..

ـ من ? .. سليم !!

ـ بشرفك ? ..

ـ انه بالمقدمة . وتعالى صراخ يائس :

ـ اولاد الكلب ، انهم يضربون اخواننا .. ونزل الاطفال

من على الشجر والحيطان واندسوا بين الهاربين ، ودفعتني قوة ساحقة الى الامام كموجة كبيرة ، واختفى وجه ابي زكي .. وفي اللحظة التالية رأيت الخوذ الفولاذية . كان يقفون سداً متراصاً وقد ركبوا اسنتهم في رأس البنادق وبدت وجوههم بيضاء كالثلج ، وصرخ صوت من ورائي :

ـ ليسقط المستغلون .. ليسقط اعداء .. وضاع صوته بين الجماهير .. وسمعت اصوات الالات الحديدية وهي تخرطش ، واطلقت بعض الطلقات ارهاباً في الفضاء ، فتفرق الحشد يميناً وشمالاً .. ووجدت نفسي اندفع الى الامام وانا اصرخ واهتف ..وسمعت صفارات تدوي ثم جاءت خمس شاحنات من الجهة الاخرى ونزل منها الجنود .. ورأيت ضابطاً اسود يمد يده نحونا وقد تقبض وجهه .. ثم هجم الجنود بعصيهم وسلاحهم واخذوا يقبضون على العمال ويضعونهم في السيارات ، وصرخ احدهم وهو يلوح بيديه وقد ضربه جندي على وجهه :

ـ انا ما دخلت انا برىء ..وسمعت صرخات سباب وشتائم واصوات ضرب، واشتبكت في معركة صغيرة، وهجم علي جندي بدين وفي اللحظة التالية احسست بفكي يترنح ثم امسكني اثنان من ورائي ودفعاني دفعاً داخل السيارة التي سارت بنا نحو النظارة .. كان احد العمال ينزف وهو يسد انفه بمنديله الذي اصطبغ بالاحمرار بينما كان آخر يزمجر وهو يتحسس مفاصله بعناية ويهمس من بين شفتيه :

ـ اولاد الزنا .. لكأنهم يضربون حجراً ..

وصرخ ثالث بصوت مبحوح :

ـ كنت اتفرج .. انا اعرف هــذه النهايــة .. كل يوم اضراب .. والله لو جاء عمر بن الخطاب لما اعجبكم .. غير أن لكزة من رفيقه اسكتته .. وساد بعض الصمت .. ثم اخذ احد الطلاب يغـني بصوت قوي :

يا ظلام السجن خيم   اننا نهــوى الظلاما

وردد معــه بعضهم .. ثم قوي الصوت واتحدت اصوات الجميع وتعالى النشيد يهــز السيارة هزاً .. ووقفت السيارة فجأة فانكفأنا على وجوهنا ثم صاح صوت غليظ :

ـ الآن سترون يا اولاد الكلب .. انزلوا ..

وقادونا الى غرفة طويلة لاتنيرها سوى نوافذ صغيرة في اعلاها قد شبكت بالحديد .. ورأيت هناك مـن سبقونا .. بعضهم متكيء على الحائط .. والبعض قــد قعد على الارض مـن الاعياء وهو يئن بصوت خافت ..، وامسكت يــدٌ بي وسمعت صوتاً مألوفاً :

ـ مصطفى .. فالتفت بسرعة وانا اصرخ بدهشة :

ـ سليم .. يا اخي .

وغرقنا في عناق صامت شديد .. وانا اردد :

ـ دعني اتطلع اليك .. كان رأسه عارياً والحفرة في جبينــه تطل كجرح غائر .. واحسست بالاعتزاز يشرق من عينيه ..

ـ انت ماذا جاء بك الى هنا ؟ .. قال متفاخراً :

ـ لقد ضربت احدهم .. ولم يأخذني الا بعد عراك شديد ..

صرخ واحد من ورائي بخوف :

ـ ماذا سيفعلون بنـا ؟

فضحك آخر وقال بصوت قاس :

ـ انهم سيطبخوننا ويأكلوننا ..

ونظرت الى اخي بقلق وقلت وانا ابتسم :

ـ بضع لطمات .. قتلة محترمة ، وحبس جمعة ، ثم يطلقون سبيلنا . ففتح عينيه وخيل الي ان فيهما شيئاً من الذعر .

ـ لابأس .. ستتعود وسترى الامر هيناً . فقال اخي وهو يظهر كأن الامر لايهمـه :

ـ بسيطـة ..

ولكنه اتكأ على الحائط وأخذ يتفحص المكان بقلق وصرخ احدهم :

ـ يعيش اتحاد العمـال وليسقط الخونة المستغلون . فرددت صوته حناجر قوية .. فتح الباب بعنف ، فساد السكون ، وظهر الملازم الاسود وفتح فمه مراراً فظهرت اسنانه البيض ثم عوى:

ـ اريد ان اعرف من هو ابن العاهرة الذي هتف ؟ ..

ولكن احداً لم يجب فتابع نباحه :

ــ اهتفوا ما شئتم .. سنسلخ جلودكم .. واغلق الباب بعنف ثم فتحه لدفعة جديدة.. قلت محاولاً ان اصرف اخـي عن افكاره:

ــ كيف حال عمليتك الجراحية ؟ ..

قال وقد اتقدت عيناه بالحقد :

ــ الوحش .. تصور انــه طرد البارحة .. ايوب وابا علي لانهما اشتركا في مظاهرة الخميس .. فقلت وانا ابتسم بمـــرارة :

ــ كما طرد ابا زكي .. والحمور .. والحبل على الجزار .

قال سليم وقد ادنى فمه من اذني :

ــ لقد تحدث عني بأشياء فظيعة .

ــ عنك انت ..

ــ نعم .. عندمــا اخبرته عن العملية والمبلـغ لم يرد بكلمـــة واحدة بل هز رأسه وقال : طيب .. طيب .. ثم بعد ايام ،وانا اقترب من الادارة ، سمعته .. كان يحادث شريكه الجديـــد .. تصور !! كان الشريك يحاول ان يقنعه بأحقيـة طلبي ضمن القانون وكان وهو يصرخ :

ــ لولا قول الناس .. اخوه .. لكنت رميتــه للكلاب .. الف ليرة لتجميل وجهه النحس ؟ . لن يراها في حياته ..

قلت وانا ارتجف :

ــ ارفع عليه دعوى .. في الحال .

ــ ونصير مهزلة .. آخ يرفع على اخيه دعوى ؟ .

ـ يا حبيـــبي انت قلبك طيب .. لكن هو .

ـ لا ريد ان اعمل العملية على حسابه .. بل على حسابي ..
ثم تساءل اخي بعد تفكير :

ـ يا مصطفى لماذا يفعل المال هكذا ؟ .. قلت بمرارة :

ـ ستفهم .. ستفهم كل شيء ..فيما بعد .
ومضت ساعات ساد فيها الظلام (وغفا بعض الجالسين) . ثم فتح الباب اخيراً وظهر ضابط شاب اخذ ينظر الينا بحقد :

ـ اسمعوا .. فساد صمت عميق ..

ـ وصلتنا الاوامر بمناسبة الانتخابات ان نطلق سراحكم . ولكن اذا عاد احدكم الى مثل هذا .. وساد الهمس وارتفعت بعض الاصوات :

ـ يعيش العدل .

ـ انهم يرشوننـــا .

ـ ليسقط المستغلون .

ـ سنضحك على ذقونهم

وصاح الضابط با نفعال :

ـ اخرسوا ..

فساد الصمت من جديد ..

ـ ولكننا سنقيد اسماءكم .. لنتعرفوا فيما اذا اشتركتم في مظاهرة

من جديد .. وعندها ستعلمون ما هو الموت الازرق .

فسمـــع صوت من آخر الغرفة :

ـ طز ..

ولكن الضابط تجاهل ذلك .. وتقدم جندي وبدأ يخلي القاعة اثنين اثنين ويأخذهما الى غرفة ثانية . وهمس اخي بقلق :

ـ لنذهب معاً .

ـ طبعاً .. تعال ..

ادخلونا الى غرفة ثانية ضيقة في صدرها طاولة فخمة مليئـــة بالاوراق .. وقد جلس وراءها ضابط اشيب :

ـ اسمك ؟

ـ مصطفى بن محمود ميداني .

ـ آه ..

ورفـــع الي عينيه الزرقاوين :

ـ اذن انت .. كنت اتمني ان اراك هنا من زمان .. لقد اتاني اسمك من حلب .. متي جئت من هناك ؟ .

ـ من شهرين ..

ـ هم .. (وصرخ الى حاجبه) : هات الاضبارة رقم ٦٥١. وانت ما اسمك ؟ .

ـ سليم محمود الميداني .

فرفع رأسه بدهشة وقال موجهاً كلامه اليّ :

ـ اخوك ؟

ـ نعم ؟

ـ افسدته اذن .. اننا نرحب بالضيف الجديد .

ثم قال وقد ألان لهجته مخاطباً اخي :

ـ انا لا افهم .. اني اعرف اخاك الاكبر .. انــه شخص ممتاز .. يتبرع دوماً للحفلات الخيرية .. ما الذي دفعك انت الى هذا العمل ؟ .

فينظر الي سليم بقلق ولم يجب .

ـ هذا رجل مفسود (واشار الي) .. اضبارته ملأى .. آه هات الاضبارة ..

وفتح الاضبارة وتفحصها ملياً :

ـ مصطفى مصطفى مصطفى محمود الميداني .. عامل بشركة النسيج .. الاشتراك بخمس مظاهرات .. حادثان توزيع مناشير .. اصطدام مع الشرطة .. سنضيف اليوم اشتراكاً سادساً .. اين تشتغل اليوم ؟

ـ بالقابون ...

ـ لتفسد العمال ؟ . آه .. سنتولى امرك مع صاحب المعمل . سنلتقي قريباً .. اخرجا ..

كانت الإنسام تتراقص هادئة في ساحة المرجة ونحن نمشــي

صامتين .. مستغرقين في افكارنا .. ثم نظرت الى الساعة وقلت:
ــ يجب ان تذهب ، قد يفوتك آخر ترام ..
ــ سأذهب معك أريد أن أوصلك . ومشينا دون ان نتكلم، ببطء وهدوء، وأيدينا متشابكة..ثم قطع سليم حبل الصمت قائلاً :
ــ يا أخــــي !! ..
ــ نعم .
وسكت قليلاً ثم تنهــــد :
ــ لاشــــيء .
وأحسست بيده تتصلب في يدي ثم ترتخي .
ومن بعيد لاح ضوء بيـــتي ..
ــ عجيبة .. جارتنا سهرانه اليوم ..
لابد ان عندها زائرين .
ولما فتحت الباب استدرت الى سليم قائلاً وانا مطرق :
ــ والآن استودعك الله .. والى اللقاء .
ورفعت رأسي، والتقت عيوننا وايدينا متشابكة، ثم استدرنا معـــاً ودخلنا البيت وهتفت بالجارة الـــتي خرجت لاستقبالنا :
ــ من فضلك يا مدام .. اجلبي الى غرفتي سريراً ثانياً للساكن الجديــــد .

١٩٥٣

إميليو

أتعرفون كيف أتصور جهنم ؟ إنها
جنة وارفة . يعيش فيها انسان
فرد وحيداً دون أليف .

[فيتزجرالد]



ـ اعزف لنا لحناً آخر
ـ نعم لحناً آخر .. لحناً آخر
ويحني إميليو قامته النحيلة ، ويبتسم ابتسامة صغيرة يظهر منها سناه المذهبان، ثم يستدير الى أفراد الفرقة، ويبدأ في لحن جديد :
كانت ثيابه تتهدل عليه ، واذا ما حرك رجله ويده على إيقاع اللحن ، كان يخيل الينا ان الهواء يتخلل بذلته ويجري فيها بقوة ..
ورغم اناقته البادية التي تتوجها عقدة فراشة ملونة على عنقه العظمي الهزيل ، فقد كانت أنظارنا معلقة بعنيه الكئيبتين الزرقاوين اللتين تؤلفان مع وجهه الأسمر الغامض سحنة غريبة .
ـ اعزف لنا لحناً آخر
ويحني قامته ايضاً ، ويسحب برفق منديلاً أبيض

صغيراً ، يمسح بـــه عينيه ، ويتنفس مراراً بعمق ، كأنما تعترض حلقه دائماً كرة من الإسفنج ، ثم يستدير ، وفي عينيه الزرقاوين نظرتهما الكئيبة ويشير إلى أفراد فرقته، ثم يتابع حركة الراقصين، محنيـــاً رأسه لتحية عابرة ، ومبتسماً أخرى لوجه صبوح أثبت أنظاره عليه .

كانت حركة الراقصين على أشدهـا وهم يتمايلون على إيقاع الرومبا الحادثـــة عندما قال صديقي وهو يعصر يـــدي :

ـ هل استهواك ؟

ـ من ؟

ـ اميليو طبعا ، اني أراك تحدّق فيه كثيراً .

ـ الواقع .. أنه بارع .

وقال صديقي وهو يدني رأسه مني ويقول بصوت حاول أن يجعـــله خطيراً :

ـ هل تعلم .. أنه بلا رئتين ؟

ـ ماذا ؟

ـ إنه يتنفس بجهاز خاص صنعه له طبيب ألمـــاني .

ـ بدون تخريف ، يجب أن يكون طرف الجهاز في أنفه حتى يستطيع التنفس .

ـ .. أنا مثلك لم أصدق في بادىء الامر ، حتى سألته .

ـ سألت من .. اميليو ؟

ـ نعم ، وقد قال لي وهو يحاول الضحك . اناأعيش على كل حال .

ـ هذا غيرممكن..هل شق الطبيب بطنه ووضع فيه الحديد ؟

ـ ألم تقرأ في المجلات .. أخبار الرئة الحديدية الجديدة ؟ .

ـ قرأت ياسيدي ،ولكن من يستعملونها يبقون ممددين طوال العمر ، ثم اني رأيت صورة أحدهم ، فإذا برئته الحديدية أكبر من بطنه مرتين .

ـ لاأعرف .. المهم انه يتنفس بصعوبة كبيرة ، ولا يستطيع ان يتحمل أي مجهود .

ترك اميليو العزف فجأة وسار مسرعاً الى أحدى النوافذ المغلقة التي تطل على مطار المزة الفسيح ، ولما فتحها أخرج رأسه ، وأخذ يعب الهواء بنهم ، ووجهه يبرق في ضوء القمر الكامد .

ـ هل رأيت ؟

ـ مسكين .. حياة فظيعة .

ولما رجع .. أخرج منديله ومسح عينيه من جديد ،ثم جلس يستريح ، وينظر الى الموائد نظرة كابية ،ثم شردت عيناه ،وظهر على فكه ارتخاء بانت منه اسنانه المذهبة .

قال صديقي :

ـ أدفع نصف ليرة فقط لأعرف ماذا يدور في دماغه !!.

اترى تلك الارتيست الشقراء ؟ سأطلبهـا للرقص في الرقصة القادمة .. لقد رفضت البارحة ، بحجة انهـا تعبة .. امـا اليوم (وضرب بيده على جبينه) فهنـا يكمن دواء التعب ..سأتركك طويلاً لأن الفرقة ستعزف رقصتين معاً

ـ خذ مجدك ولا تقصر .. آه لو أعرف الرقص !! .

ولم يسمع صديقي جملتي الأخيرة فقد بدأت رقصة الفوكس تروت ورأيته ينهض بسرعة ويتقدم من الشقراء ، ثم تدور بينهما عدة كلمات ، تنهض بعدها بتثاقل ، فيخاصرها بقوة وهو ينظر الي نظرة منتصرة ويغمز بعينيه .

أخذت أتشاغل بشرب ثمالة كأس البيرة وأتلفت حولي الى الموائـد الفارغة الـتي هجرها أصحابها الى الحلبـة ،يدورون كالفراشات ، وخيل الي أني انا وحدي الذي يجلس هكذا يحدّق ببلاهة في الأرجل المتحركة ، والأرواب التي تشهق على الاجساد الفتية .. ولكني لاحظت هناك في أقصى القاعة سيدة شابة تجلس وحدها وتدخن .

كانت جميلة ذات انف ترتفع أرنبته في استعلاء، وعينين عميقتين مغمضتين بعض الشيء ، تتابعان الراقصين في فتور ، وكان على طاولتها كأس واحد فقط أخذت ترفعه ، مرة بعد مرة ، في تثاقل كأنها تنوء بحمله ،وتعبّ منه جرعة صغيرة، ثم تضعه على الطاولة تاركة أصابعها الناحلة البيضاء تحوطه .

ارتيست ؟ لا . فليست ملابسها البسيطة المتواضعة،ولا وجهها الخالي من المساحيق،ولا يداها اللتان تبرق أظافرها من بعيد بدون مانكور .. بالتي توحي بانها ارتيست .. ثم ، وحدتها ، وكأسها المفرد ، ونظراتها الزائغة .. انها وحيدة ، أجنبية ..

ولاحظت تدحرج أفكاري نحو الرومانتيكيـــة ، فابتسمت ، سأبني ، كالعادة ، ألف حكاية وأسطورة ، حول هذه الغريبة ، كانت كلها تذوب كعوالم الاطفال عند ظهور الصباح ..

وانتهت الرقصة ، وتابعت الفرقـــة عزفها ، فارتفع صوت الآلات في ايقاع قوي ، واتسعت الحلبة حتى كادت تبتلع الموائد .. انها رقصة الفالس .

والتفتُ الى الغريبة ، فرأيت وجهها يتقـــع ، ويدها تشدد القبض على الكأس .. وخيل الي مـــن بعيد انهـــا ترتجف ، ثم أشعلت سيجارة ، فلاحظت ان يديها ترتعشان .. ياصديقتي في الليل .. أية فكرة تعشش في تلافيف هذا الدماغ الجميل . ؟

نهضَتْ بقوة، وألقت سيجارتها جانبا ، ثم أخذت تدنومن الحلبة في هدوء ولما وصلت وقفت قليلاً ثم اندفعت تدور في تيار الراقصين ترقص وحدها ويداها ترفان كجناحي نعامة .

كان هذا شيئاً غريباً ، خارقاً .. ولكن الرقص استمر ، وإن كان الراقصون قد أخذوا يتابعونها بأعينهم في دهشة ، حتى لقد أخطأ بعضهم في الايقاع .. وأخذت أتلفت هنا وهناك وانا غير

مصدق .. آه لو اعرف الرقص آه لو أجد لهذه الحزينة فارسها الجميل الذي يضمها الى صدره ، ويدور معها في الهواء المعطر ..

نهض اميليو واقفاً ، وعيناه الكئيبتان تلفانها بنظرة غامضة بائسة ، أخذ يتلفت ، هنا ، وهناك .. كأنما يبحث عـــن رجل يشاركها الرقص ، ووقع بصره عليّ فخفضت رأسي في خجل .. ولكنه ترك آلته ، ونزل بسرعة الى الحلبة ثم أمسك بيديها وأخذ يدور معها .

كم تمنيت ، في تلك اللحظة ، ان أقفز الى هذا المارد البائس ، وأقبله ألف قبلة على وجهه الأسمر النحيل ،وان أضمه الى صدري بعنف حتى يصيح من الألم ..

ولكن المارد أخذ يترنح فجأة ، وذهبت مقاومته عبثاً فهوى الى الأرض .. وهو يأخذ أنفاساً تصفر صفيراً مرعباً ، فتوقفت الفرقة عن العزف ، واحاط الراقصون به فزعـــين ، ولكن احد الخدم شق طريقه اليه ثم حمله الى النافذة بسرعة ، فأخذ يستنشق الهواء ويفرك صدره بقوة حتى استراح .

* * *

عندما خرجنا ، كان على طاولة الغريبة كأسان مترعان .. وكانت تتحدث طويـــلاً ، وهو يصغـــي اليها واضعاً يديه على صدره .. وفي عينيه الحزينتين كانت هناك دمعة جلية .

الولد الثالث

انني خالد .. مستمر .. من الازل الى
الابد .. الا ترون ذلك ايها الاغبياء ؟
انظروا إذن الى الحياة في عيون طفلي

[فابتزاروف أمام المشنقة]



ـ سنتان يابنتي .. سنتان فقط ، وبعدها تعودين !!

. لم تستطع أن تتذكر الملامح المبهمة الغليظة، فهي ما اعتادت النظر إلى وجهه بامغان ، وهـــي بالتالي لاتعرف ، في أنحاء هذا القلب الميت الجامـــد الذي يحتويه جنباها الضامران ، شيئاً واضحاً من عاطفة أو تعلق بهذا الذي كان يضربها ، يضربها كلما ماتت دجاجة أو باضت بيضة صغيرة، يضربها كلما شحت السماء بالمطر ، أو ذهبت الريـــح بالزهر . يضربها كلما جاء رجال الريجي و أشتروا تبغه الذي يموت في جمعه وتبخيره ، ثم يعطيه الى القادمين بأيد مرتجفة . وهي لاتتذكر من كل انحاء جسمه إلا يديه الخشنتين المليئتين بالعقد ، وهما ترتفعان وتهويان وتتناغمان مع رفسات رجليـــه .

ومددت رجليها وقد شعرت بقليل من الدفء إلى

آخر الفراش ، ولوت اللحاف ولفته حول جسدها جيدا ، وحبست أنفاسها وتسمعت الى حركة متسللة حذرة . مروان ، عصام ، خالد ؟ .. لافرق ، وأحست برعشة تهز جسمها كله ، وعادت الى تكوير رجليها ، كصغار الارانب ..

لقد تأخر الوقت اليوم .. عصام سهران في الخارج ، وهي لاتستطيع أن تنام باطمئنان حتى تسمع خفقان الباب عندما يخرج الشبح متسللاً بدون حذر ، فتقف على قدميها وتدفع الرتاج وتمسح وجهها باشمئزاز ، كأنها تزيل آخر لمسات الشفاه المحروقة المعروقة .. لقد كانت تعذبها آلية العمل .

ولمست بطنها المنتفخ الأصم ، وتنهدت في شبه بكاء .. إنها تريد أن تحتفظ بهذا الثالث الذي يتحرك في احشائها بوداعة طائشة .. إن شيئاً في أعماقها يدفعها لأن تتعب رأسها بالتفكير الجدّي، بعد ان اعتادت ألاتفكر منذ زمن بعيد .. وهي تتململ الآن حائرة ، بعد ان سمعت سيدتها تصدر إليها أمرها الثالث المعهود ، وهي تدير رأسها محمرة الخدين :

ـ لاتخرجي إلى الحارة يا فاطمة بعد الآن..قديراك الجيران.

وقد كانت تفكر بشيء هائل .. يجب ألا تلد هنا في الغرفة الرطبة المظلمة التي اعتادت كتم الأصوات . ولم يعد يقنعها ابداً وجه سيدتها الخشبي وهي تقول :

ـ بحياتك البركة يا فاطمة المولود فطس .

وحينا تسكت متألمة تروح في دوامة وغيبوبة متقطعة، تملؤها تصورات تنبض بصوت بكاء حيواني سمعته حينا شعرت بفراغ بطنها .. ثم سكت الصوت فجأة ووضعت على عينيهــا ملاءة غليظة كغلظ الصوت الذي لاتعرف مصدره :

ـ الضوء يؤذي عينيك يا فاطمة .. حاولي أن تنامي .

وتريد ان تتكلم، وترفع يديها ثم ترخيهما بيأس ، وتصل اليها أصوات غير مألوفة مضخمة كمــكبر صوت الجامع المجاور .. الطفل يشبه خالد .. الشاي يا فاطمــة بسرعة .. الأنف أنف مروان .. سرحة جبين عصام .. لاتخرجي إلى الحارة .. ثم ضحكات مدوية ، ثم صمت يشعرها بالراحة .

* * *

ـ سنتان يا بنتي .. سنتان فقط ، وبعدها تعودين !! ..

الجبل العلوي جنة ، وإن كان من تراب ، وهي تحس بقساوة الرخام الذي تدوس عليه رغم خفها الطري . وما كانت شجيرات الليمون والنارنج هــذه التي تنتثر في أرجاء البيت العتيق لتملأ العينين الخضراوين المليئتين بظلال شوامــخ البطم والسنديان والدلب ومتكاثف الخضرة التي ينفذ منها الغيم البارد . واعتيادها اليومي القديم على اللطم والركل ، لم يؤثر في نفسها تأثــير الكلمة القاسية الباردة تخرج من شفة ناعمة فتترك في وجهها لون العندم .

لقد كانت تتحدث مع شباب الضيعــة ، يتابعون ردفيها

وينهشون صدرها بعيون رمادية ، ومع ذلك لم تكن تشعر بالحرج .. وآخر قبلة على شفتيهـا كانت حارّة عابقة في محراب نفسها المضاعة ، وآخر ضغطة على أصابعها كانت من يد خشنة سمراء، ألفت امساك المعول وضرب الفأس .. إنها لاتذكر الوجه وقد أخذ يغيب في تلافيف الأيام ،ولكنها فهمت هذه القبلة وعشقت هذه الأصابع المكهربة .. إنه شيء واضح لايبعث على الحيرة .. ولكنها لم تفهم ..لم تفهم ابداً، كيف تهيء الشاي لطفل يذهب الى المدرسة يكلمها بصوته المراهق الذي أخذ يخشن ويغلظ، وهو ينظر اليها بسذاجة حين تعقد صدريته وتنظف محفظتـه .. ثم يدلف بعد سنوات ،ويغلق الباب وراءه بيد مرتجفـة ، وينظر اليها نظرة مختلفة .. مغايرة ، وينضو عنه ثيابه بهدوء من يقوم بعمل عادي مشروع، ويندس إلى جانبها في الفراش ويداه تمتدان إليها كأخطبوط جبان .

يجب ان تحتفظ بالثالث بأي ثمـن ، وخيل اليها انها تسمع بكاءه الحيواني الذي ينقطع فجأة كأن يداً وحشية قـد أطبقت عليه ، وشعرت ان شيئاً ما يتقطع في جسمها وهي تسمع صوتاً بغيضاً يحشرج :

ــ الولد مات يا فاطمة ، بطنك لايمسك أطفالاً .. بحياتك البركة .

وسمعت صوت الباب الكبير وهو يغلق ، ففتحت عينيهـا المسهدتين بذعر وعرتها رعشة. لقد رجع عصام من عند خطيبته

البضة البيضاء كالغنم .. تلك الخطيبة التي تنظر إليها وتكلفها بأشق الأعمال ، كأن بينهما ثأراً ناغراً .. إنه يسهر كل يوم عند خطيبته ، فيخرجان ويتنزهان، ومع ذلك يأتي في آخر الليل نحوها كذب جائع ، وهي مسهدة خائفة مشمئزة ، تحسب الوقت القليل الذي بقي لتنادي سيدتها بصوتها التي اعتادت قسوته :

ـ اسم الله يا فاطمة .. شمسك عالية يا خانم .. قومي اشعلي النار .

وسمعت خطواته تدلف نحو المطبخ كعادته .. إنه لم يعتد مرة واحدة ان يتعشى في الخارج ، او عند خطيبته الحاقدة .

إنها لاتذكر سمة مميزة لوجه ابيها المبهم القسمات، سوى ذلك اللمعان الغريب في عينيه المسماريتين الصقريتين حينما مد يده وارجعها بكمية ضخمة من الأوراق لم تر مثلها في حياتها .. لقد نظر إليها وادار وجهه بسرعة يستطلع الأفق، وكانت تحس انه يشعر بشيء إنساني لم يشأ ان تقرأه في ملامحه الإبنة الواقفة كشجرة صغيرة مرتجفة .. ومد السيد يده وشد على أصابعها بحنو ، ثم تكلم مع ابيها كلمات كثيرة سريعة ، وكانت هي تتلفت باحثة عن أمها ، ولكن ثنيات الدرب بقيت جافة ضاحية ، لم يرتسم عليها ظل ، وساد بعض السكون، ثم شعرت باليد الناعمة تشديدها من جديد، وبقوة خفيفة تدفعها إلى المشي .. ومشت باستسلام نحو السيارة المغبرة القاتمة ، ورغم أنها شعرت بالفضول لدى غرقها في المقعد الوثير ، ومشاهدتها الآلات اللامعة المعقدة ، فقد التفتت الى

الوراء والسيارة ترقص بدون تدريب على الطريق الذي لم ينس ترابه ضم الشجر بعد،واستجمعت في ذاكرتها كل الصور المزروعة في حناياها والتي نمت ببطء نمو زيتونة أصيلة، ودفنتها في الأعماق. وهي تذكر ان سيدها حدثها حديثاً طويلا جميلاً ، وربت على كتفيها بحنان ، وإن كانت نظراته تشبه نظرات شباب الضيعة ، متفحصة منقبة .

لاتزال خطوات عصام تنقر في دماغهـــا خطوة خطوة ، وتصورت المنظر المعاد،والصوت الحاد الألثغ ،وفكرت : عندما ينتهي من العشاء،سيرسل سُعــلة مصطنعة كانت كالاشارة المنبهة لقرب المعركة الفاشلة المعروفة النتيجة .

الزمن بالنسبة إليها صوت سيدتها مع ضوء الشمس،ولمسات رجل مع دكنة الليل الاصم .. رجل يختلف يوما عن يوم .. لم تكن تعرف كيف لايزدحم الاخوة الثلاثـــة نحو غرفتها في يوم واحد ، وتصورت الموقف الساخر المرير ، ولكن دلك لم يحصل ابداً ،كأن هناك اتفاقا ضمنيا بينهم . . لقد ذهب زمن المشاحنات. وتواضعوا اخيرا على نصيب كل منهم من لحم الفريسة .. بعد ان اباحها لهم . . ذات يوم محفور في دماغها .. ذلك الذي يضم جسداً ذا فم يصرخ بالاوامر الباردة القاسية . لقد جاء سيدها ، ولم يكن لها في البيت سوى اسابيــع ، واذناه منتصبتان كذئب مداور ، ولما خرج كانت مذهوله حائرة مضاعة .. لم تقو على الصراخ والبكاء، وطار من ذهنها كل حلم عن حياتها الجديدة التي

تبعث على الفضول ، وفي يوم آخر مد يده المرتجفـة الحارة نحو بطنها ثم قفز قائلاً بذعر أذهلها :

ـ العمى .. ولد ؟

ودارت وراء الجدران الأحاديث ثم أخذ عصام يدلف نحو غرفتها بهدوء من يدخل حرماً آمناً تعود عليه وأعلنت سيدتهـا بحقد وغيظ :

ـ لاتخرجي إلى الحارة يافاطمة .. الجيران ..

وحتى مروان ، أملهـا الذي بناه بأحاديثه اللطيفة ومعاملته الرقيقة لها، أضاعته ودفنت ذكراه في أعماقها، لقد ثار حينما نظر الى بطنها المنتفـخ ، وشهد البيت خصومة شديدة بين الأخوين وتدخل الأب ، وكانت الأم تقف حائرة في المعركة الدائرة :

ـ ياملعونة ، يامطعونة أفسدت الأولاد .. البيت كان بخير قبل وجهك المشؤوم .

ولكن الأمور انحلت أخيراً ببساطه حينما أخذ مروان نصيبه من الغنيمة وتلاشت شيئاً فشيئاً شجرات البطم والسنديان والدلب من ذاكرتها المشوشة، وقلـت نظراتها اللاهفة نحو السيارات الممتلئة، وأخذت تتعـلم أن تنظر الى الارض ونسيت عادة الضحك ، وانحصر همها في الانهماك في عملها المضني المتواصل .

لو أنها بقيت في الجبل ، فكرت فاطمة وهي تسمـع السعلة المتوقعة ، وتزوجت وأنجبت أطفالاً تعتني بهم اعتناءها بخالد حينما

كان لا يزال ناعم الصوت ، بريء النظرة وطفرت مـــن عينيها المهمومتين دمعة كبيرة .

ــ أنت تتعلم إيش يا خالد با لمدرسة ؟

فينظر إليها ببراءة ويروح يقص عليها أشياءكثيرة جميلة ،وقد أذكت حماستة عيناها المبهورتان وفرحها الطفولي بما تسمع :

ــ اليوم حفظنا قصيدة جديدة .. اسمعي ..

ــ هـــذا شعر صعب ما أفهمه .. انا أحفظ مواويل وأغاني جبليـــة ..

وتروح تبحث الآن عن ذلك الوجه البريء الساذج في هذه السمات القاسية اللامبالية التي يطالعها بها وجه خالد وهو يعصرها بـــين ذراعيه في عنف مراهقٍ يعبر عن خجله المستتر .. ألا ما أطول الحياة ..

سنتان يا ابنتي .. سنتان فقط ، وبعدها تعودين !! ..

وفتح الباب ، وانتصب شبح أسود أخذ يخلع ثيابه في هدوء.

* * *

انفصلت عن جبل الليل منتفخة تعبـــة حذرة ، سوداء حتى قدميها ، وأخذت تتطلع الى الخلف ، تستشف من خلل الضوء البخيل الذي ينقط من مصابيح الزقاق الطويل شبحاً وراءها ، وأحكمت وضع الملاءة حول خصرها ، ثم وضعت يديها فوق

بطنها المنتفخ ، وأخذت تضغط عليه بدون وعي ، كأنما هـي خائفة ان يفلت من بين أصابعها .. لقد صدر الأمر الثالث :

ــ لاتخرجـي الى الحارة يافاطمة بعـد الآن .. قد يراك الجيران !!

الليل بارد معتم ، والزقاق يوشك على الانتهاء ، وسمعت من بعيد صوت الترام يهدر ويرسل برنينه الباهت ، وفكرت :

عندما يدخل مروان اليوم ويرى الفراش فارغاً!!. وضحكت بحقد ، وتصورته يقفز مسرعاً إلى غرفة أبيه التي كان يعرف أنه وحيد فيها منذ ذهبت أمه في المساء الى بيت أهلها وأعلنت أنها ستنام هناك الليلة، فإذا ما وجد ان أباه لم يغتنم الفرصة ، شد قبضته بعنف واندفع الى غرفتي عصام وخالد . إنه يريد ان ينتقم لحقه المغتصب .

استوقفت الترام وهي تشعر بشيء من الزهو ، وعندما أرادت ان تدفع ، أخرجت صرة صغيرة معقودة عقداً محكمـاً ، وأخذت تحاول ان تحل عقدتها ، والجابي ينتظر أمامها بلا مبالاة من تعود هذا الأمر من زبوناته من النساء، ولما أفلحت أخيراً، وضعت كفها على الأوراق المالية القليلة التي كانت فيها، كأنما لتحجبها عن أعين الجابي الذي قد يظن بها الظنون لتملكها مثل هذا المبلغ ، ولكن الجابي مد يده بتبرم وأخذ قطعة القروش العشرة وأرجع اليهـا قرشين ونصف ، ثم سار وهو يهز جيبه الذي يوسوس بالقطـع

الفضية والنحاسية .

واستندت الي المقعد ، وأعادت الاسم ثلاث مرات : جميلة، جميلة ، جميلة وتصورت الاستقبال الذي سوف تستقبلها به فيا إذ رأت وجهها .

وفكرت وقد ضاقت عيناها ، كأنما تدفع عن ذهنها كابوساً مزعجاً ، بالغرفة الرطبة ، وبالمناديل التي تعصب بها العيون بحجة كتم الألم ، والصوت الحيواني لطفل صغير ينبعث مرتين أو ثلاثاً مستهجناً العالم الذي جاء اليه ، ثم تطبق عليه اليد الناعمة المألوفة فيصمت فجأة ويحشرج ويخمد تنفسه الأرعن .. ويتعالى صوت غليظ لا تعرف مصدره :

ـ بحياتك البركـة يا فاطمة ، الولد فطس . بطنك لايمسك الأولاد !! ..

وشدت يديها على بطنها بعنف،وتمنت ان يضعف هذاالضوء القوي الذي يكاد يؤذي عينيهـا ، وشعرت بالارتباك .. كيف ستذهب ، ماذا يقول من يعرفها ، ولكنها ابتسمت ، هذه هي الطريقة الوحيدة التي تفضحهم بها . سيحمر الوجه الخشـبي من أقوال الناس وسترفض أية خادمـة أن تدوس عتبـة البيت ، وستعرف خطيبة عصام لماذا كان حبيبها يتركها في وقت معين ، كأنما هو ذاهب لموعد مضروب .

ونبت أمام عينيها الوجـه القديم القاسي الملامح، واليدان

ذواتا العقد ..

ــ سنتان يا بنتي .. سنتان فقط ، وبعدها تعودين !! ..

وأحست باستحالة العودة ، بدون أي سبب ظاهر ، ماذا لو أنها انتظرت حتى الصباح ، ثم ركبت السيارة نحو اللاذقيــة ؟ ولكنها نظرت الى بطنها المنتفخ .. وخيل اليها ان دهراً طويلاً جداً كصحراء ممتدة ، يفصل بينها وبــين الماضي . لقد أخذت تستثير الرماد في القلب الكامــد ، الحافل بغرائب الذكريات وأعنفها ، ولكن غبار الرماد أعمى عينيها وسد أنفها ، دون أن تحس بذلك اللفح الحبيب الذي يدفيء الجوانح .

وفكرت بامتنان عميق :

ــ لو لم ألقها .. لكنت ضعت .

وتمثلتها جالسة على الكرسي العريض وحدها ، ترمق بعيون رمادية تنبض حنانا وتسيل فرحاً ، طفلاً صغيراً يركض على العشب ويتعارك مع الصبيان الصغار

كان ذلك يوم الجمعة الماضي ، والأصيل يلملم أشعته الدافئــة من على الارض . وكان ذلك اليوم يوم نزهة أولاد سيدتها ، ولم تأخذ في ذلك اليوم سوى حسان ، لأن غادة كانت متوعكة ، وكانت سيدتها قــد سمحت لهــا بالخروج بعد ان تأكدت انها ستسلك طريقاً لا يعرفها فيه أحد .

ــ خديجة .. إياك والجيران ، سأنتف شعرك ، سأقطعك إذا

رآك أحد .. دعي الملاءة فضفاضة ، حتى لا يرى أحـد شيئاً .. انحني في مشيتك الى الأمام . اسمعـي حسان موسيقى الدرك .. إياك ان يضربه احد في الجنينة .

وعندما خرجت تنفست بارتياح ، فقـد كان هذا اليوم هو اليوم الذي ترتاح فيه من هـذا البئر اللزج الذي تسميه بيتها ، وعندما وصلت الى حديقة البرلمان شاهدت الدرك كالعادة ، وقد جلسوا يستريحون وحولهم جيش من الأطفال .

لقـد كانت تراها ، في كرسيها العريض وحيدة كأنما قـد حجزت الكرسي لحسابها ، وكانت خديجة تستغرب هذه الاكداس من الاحمر والابيض التي طرشت بها وجهها ، فلا يظهر منه ما هو إنساني سوى عينيها النديتين المبللتين بالعطف ، وهما تتبعان طفلها الذي ينط ويلعب عبر مسارب الحديقة .

ورغم ان لفاطمة بعض الصديقات من الخدم وغيرهن ممن ألفن ان يأتين كل جمعة الى الحديقة ، فقد كانت تلاحظ ان هذه المتوحدة المنفردة عـلى كرسيها المعهود ، تختلف عـن غيرها ، وسمعت الهمس يدور حولها ، والعيون تتطلع اليها في فضول . وزجرت إحدى الأمهات ابنتها عندما شاهدتها قد جلست معها وهي تحادثها في اهتمام .

ـ اضحح يا حسان .. اصحح حتى لاتقع .

ولكن صرختها كانت متأخرة ،فقد وقع حسان وطفل آخر على الحصى ، واندفعت من فيها الصرخات ، وأسرعت اليــه ورفعته عـــن الارض ، ورأت يدين سمراوين مليئتين بالحـــلى والأساور ترفعان الصبي الآخر .

وتلاقت العينان وابتسمتا بود ، ثم سارتا معا الى الكرســي المتوحد .

سألتها فاطمة وهي تتنهد :

ـ ابنك ؟

ـ نعم ؟

ـ هل لك غيره ؟

ـ لا

ـ لماذا ؟

ونظر اليها الوجه المليء بالأحمر والأبيض بحذر ودهش :

ـ يكفي هذا ..

ـ وأبوه هل يرضى ان .

وللمرة الثانية رفع اليها الوجه المليء بالأحمر والأبيض نظرات بدأت غاضبة ثم لانت شيئاً فشيئاً وهي ترمق البطن المنتفخ .

ـ لاأعرف من هو أبوه !

ونظرت خديجة حواليها وهي ترتعـــد ، ولاحظت الوجوه

ترمقهما بريبة وشك، وفجأة شعرت فاطمة بجرأة غريبة وسألت:

ـ هل انت شـ... ؟

قالت المرأة بازدراء : نعم !!

ـ هل تستطعين.. هل تستطعين ان تحتفظي بأولادك .. أعني هـل انت حرة في .. ونظرت اليهـا العينان الحنونان النديتان بدهش ، وكأنما فهمت صاحبتهما شيئاً في هذا الوجه المنكمش المبتهل،فربتت على يدها في عطف،ثم قالت بصوت يفيض رقة:

ـ تكلمـي يا أختي .. احكي لي كل شيء .. اسمي جميلة .. ولكن ..

وعندما رجعت فاطمـة الى البيت كان في عينيها بقايا دموع ونظرة غريبة حالمة .

نزلت من الترام في المرجة وقد ادركها الخوف والبرد معاً ، وخيل اليها ان اضواء السيارات التي تمر الى جانبها كالسهم تكاد تعميها .. وحارت في الطريق الذي ستتجه اليه ، ولكنها تذكرت كلمات جميـلة ، فسارت محاذية لشاطىء بردي ، حتى إذا رأت امامها العملاق الأصفر ، ذا الطوابق التي لم تحاول عـدها ، أدهشتها دمشق في الليل ، وأضواء النيون المختلف الذي ينبض من كل الانحاء،ورنت الى السيارات الواقفة بعضها وراء بعض ساكنة كحيوانات كبيرة نائمة ، وتقدمت من إحداها واجفة .

وفي تلك اللحظة فاجأها اكثر مـن بوق يعوي ، واصوات

كثيرة مختلفة :

ــ تفضلي ياست ..

ــ هون ارخص ..

ــ لوين يا حرمة ؟

واقتربت من السائق الشاب وقالت في استحياء :

ــ عا المزة .

ــ لوين ؟

ــ عا المزة ! ..

فصعّد السائق نظره فيها وقاسها ، ثم قال بخبث :

ــ عا لمزة ، أم على طريق المزة ؟

فقالت بقلب واجف وهي مطرقة :

ــ عا لطريق .

ففتح لها الباب وهو يبتسم ، ثم سار بها بسرعة اذهلتها .
ونظر اليها السائق في المرآة ثم قال :

ــ زبونة جديدة ؟

فأطرقت ولم ترد بكلمة ، وساد بعض الصمت قطعته بصوت
مرتبك سائلة السائق :

ــ هل تعرف .. جميلة ؟

فزفر السائق بارتياح وصفر ، ثم قال :

ـ كيف لا ؟ ومن لايعرفها في هذا البلد ؟ . ثم همس :

ـ اما انا فرأيي انهـــا احسن بنت في كل المحل .. مسايرة وامينة ولطيفة .. ونظر اليها ملياً ثم قال :

ـ على كل حال البركة فيك انت .

ودق قلبها ، واحست بمفاصلها تطقطق ، ثم استندت على المقعد ، كأنما هي سفينة مستسلمة للريح .

قال السائق وهو يبتسم :

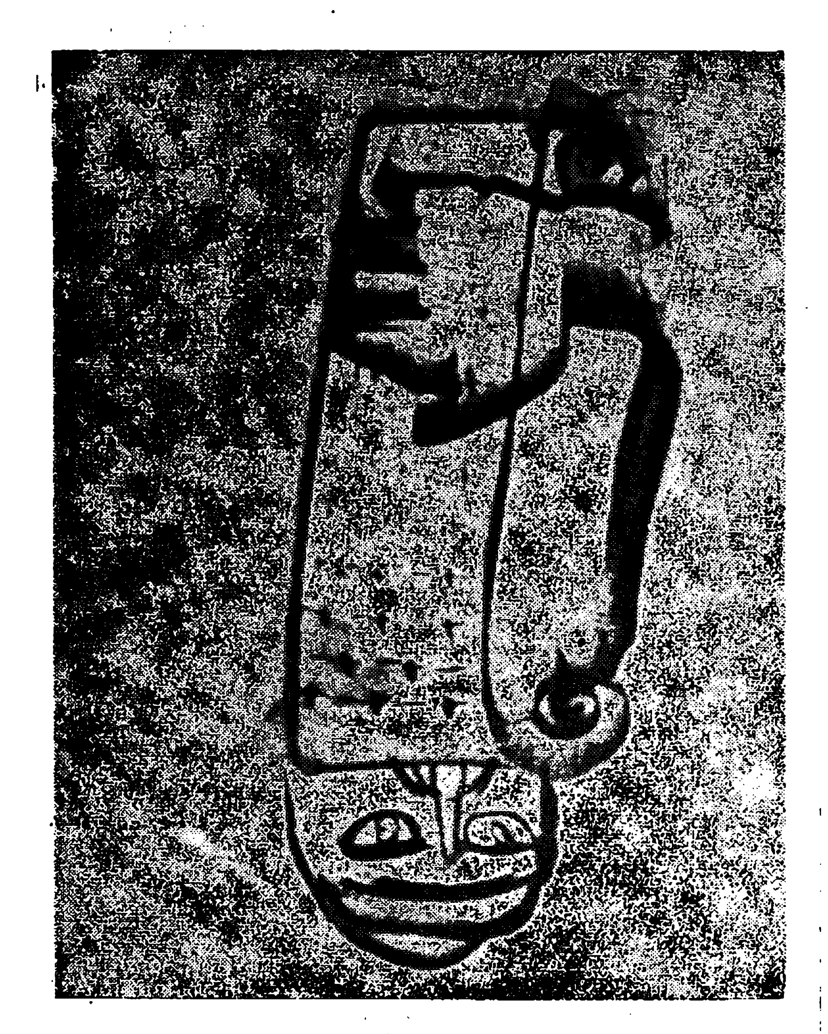
ـ ما شاء الله .. هل انت حبلى ايضاً .. هل تعرفين المثل ..

وارتسمت على فمها ابتسامة ، ووضعت يدها على بطنها في حنو ، وعيناها نديتان مفعمتان بالامل ، ثم قالت بصوت حالم فيه نبرة زهو وخيلاء ، حتى لقد التفت اليها السائق مستغرباً .

ـ نعم انا حبلى .. انه ولدي الثالث !

عريضة استرحام

الحق؟ إنه ضائع بين الأقوياء والجهلاء!!
[ديموستين]



الى جناب حضرة الحكومة الموقرة في الشام، ادام الله بقاها ونفعنا ببركاتها أجمعين امين :

سيسلمكم حاملها محمد بن اسماعيل عبد الساتر هذه العريظة معتمداً منا جميعاً ، وهو سيقول باسمنا كل شيء لسعادتكم ، وكل قول او حديث يصل اليكم من غير محمد بن اسماعيل المذكور ، هو كذب علينا جميعاً .. ونحلف بالله العظيم ونبيه الكريم على ذلك.

والهمام محمد بن اسماعيل عبد الساتر شاب طويل اسمراني له خال على خده الأيسر ووشم اسد على ساعده الأيمن ، وهو يقرط بالراء في كلامه فانتبهوا للعلامات جيداً .

نحن أهالي قرية ام الربع التابعة لقضاء الميادين من محافظة دير الزور الموقرة ، مجتمعون في بيت محمد علي ، وقد كلفنا ابنَنا المحروس «سويلم النصر الله»

بكتابة هذه العريظة اليكم ، وكل كلمة فيها نقلناه اياها جميعاً ، فهي من كلامنا جملة ، وتمثلنا كل التمثيل ، وكل ما فيها مظبوط تؤيده عموم الوقائع الصحيحة التي لا مجال فيها للشك او الابتعاد عن الحقيقة .

ولا نكتمكم اسيادنا ، ان بعض المتهورين عندنا ارادوا ان يعملوا بعض الاعمال العنيفة بعائلة فايز الديراني لكثرة ما ازل فينا من مصائب وويلات لا يصبر عليها احد، ولكن ذوي العقل هنا وخاصة المختار الشيخ سليمان خالد المحمود ، قرروا ان نقتصر الشر وان نبعث الى جناب سعادتكم بهذه العريظة ، عسى ان تدبروا الامر بحكمتكم ، وما عرف عنكم من خدمة المظلومين آناء الليل واطراف النهار .

ولقد قال لنا بعض الشباب المتهورين ايضاً ،ان هذه العريضة ما تساوي حبة قمح وانكم لن تردوا عليها ابداً .. لان فايز الديراني متنفذ عندكم في الشام ،وهو قريب للوزير اسعد الشامي، والمذكور يساعده علينا ، ولكننا نعلم وتعلمون انه ليس لنا بعد الله سبحانه الا انتم ،وان عدالتكم التي تشبه عدالة عمر بن الخطاب، الذي اقتص من امير هشم انف احد الرعية عندما داس هذا على ذيله .. الى نهاية السالفة الانفة الذكر التي تعرفونها اكثر منا ، والتي لاشك انكم درستموها في الكتب القيمة .. نقول ان عدالتكم تأبى ان تتأثر بمثل هذه المشاكل الكذابة التي يشيعها عنكم اعداء لهم فيها مآرب ومصالح .

اسيادنا أعظاء الحكومة الموقرة في الشام .

من قلوب منفطرة ، وأعين دامعة نبغث اليكم بهذا الاسترحام .. انتم تعلمون حظرتكم اساس الخلاف بين أهالي قرية ام الربع، وفايز الديراني ، فنحن قــد ولدنا في القريــة المذكورة وكذلك اباؤنا واباء ابائنا ، بل ان محمد العبد الله يملك ورقة قديمة في بيته تمثل شجرة عائلته ترجع على حد قوله الى ابينا آدم عليه السلام . وكل هؤلاء الاجداد كانوا فلاحين في قرية ام الربع .

وفي زمــن الترك الاسود ، جاء من دير الزور ، قبل حرب السفربرلك ابــو فايز الديراني المعروف بمحمد الديراني ، واشترى قطعة ارظ على الفرات في الناحية الشرقية تبلغ مئتي دونم فقط ، من اسرة جاد الله الفرحان الــتي بقيت في الارظ اياها تشتغل له بالاجرة . وحاول محمد الديراني ان يشتري قطعا اخرى من أهالي قريتنا ولكن بدون فائدة ، فاقتطع بواسطة المتصرف التركي ، مدحت محمــود ابو الكرباج ما ينوف على ثلاثة آلاف دونم من احسن ما في الارظ الشرقية من مساكب القمح ، مــع بساتين من الارظ الغربية ، وشرد اهالي هذه الاراظي نحو الصحراء العراقية بعد ان قتل منهم خمسة وجرهم في طريق القرية بواسطة الجنود الترك السكارى امام أعين الفلاحــين .. وانــتم تعلمون يا اسيادنا اعضاء الحكومة العلية في الشام ، ان الزمن التركي والعياذ بالله كان زمناً اردل من فيظان الفرات ، وكان خالياً من الرحمــة وخوف الله ، فقد كنا نخبىء يوماً الدجاج والخرفان في الاراظي

البعيدة ، خوفا من غزوات العساكر الاتراك المتتالية ، ونتحمل الظرب الشديد بالكرابيج والعصي ، اما بناتنا فقد كنا نبعث بهن منذ ظهور الفجر نحو البساتين حتى في عز الشتاء ، حتى لا تقع احداهن فريسة للعساكر السكارى الذين كانوا يرتكبون فواحش ومنكرات لا نستطيع تأدباً ان نذكرها لاسماعكم الشريفة .

ولماذهب زمن الترك المشؤوم اتي زمن العن وادق رقبة . زمن الفرنسيين اعداء الوطن والدين ، كان محمد الديراني قد مات وقام مكانه ، ابنه فايز الديراني المعروف لدى جنابكم تماماً . وقلناعسى ان يكون الابن احسن من الاب ، ولكن باللاسف وكما يقول المثل (طب القدرة على تمها لا تطلع لغير امها) والعرق دساس ونستغفر الله ، فان فايز السالف الذكر كان انحس من ابيه الذي يستقبل الآن الملك الجبار يحاسبه على كل شروره وذنوبه التي فعلها معنا ، وصار يمشي على خطواته ورحم الله اهل الامثال ماتركوا شيئاً لم يقولوه : التلم الاعوج من الثور الكبير .

وانتم يا جناب الحكومة قد جاهدتم الفرنسيين في سبيل الله باموالكم وانفسكم تحقيقاً لقوله جل وعلا : وجاهدوا باموالكم وانفسكم . صدق الله العظيم .. وتعلمون جيداً اساليبهم الظالمة في معاملة عباد الله !! .. وفي يوم شؤم من ايام الشتاء ، جاءنا خمسة من الدرك ومعهم امر سلموه الى المختار ، بنزع كل ملكية اراظينا منا بحجة عدم حملنا لسندات تمليك رسمية اولا ، ولاننا لم نكن نحلب صافياً مع حكومة الفرنسيين ثانياً . وطارت عقولنا

لاننا سمعنا الشيء الكثير عن اولئك المشردين الذين هجوا الى بر العراق ، فقتلهم البدو واخذوا بناتهم لامر لا يريده الله. واخذنا نبكي ونسترحم بدون فائدة ، كأننا نكلم نقرة احجار. ولم نستطع ان نقاوم لقلة السلاح الذي اخذه الفرنسيون في حملة تفتيش واسعة قبل سنتين ، فالعين بصيرة واليد قصيرة والعين لا تقاوم المخرز كما يقولون .

وجاءنا في اليوم الثاني فايز الديراني فجأة كالجني ، واخذ يظحك في وجوهنا ، وعزمنا الى مظافة المختار ، وهدأ عواطفنا ، واقنعنا انه ذو مكانة كبيرة عند الفرنسيين هو وقريبه وزير الزراعة الحالي اسعد الشامي . ولاجل ان لا نشرد من بيوتنا ، ويصيبنا ما أصاب غيرنا ممن ذهبوا الى بر العراق ولم يرجعوا حتى الآن ، قال لنا : لينزل رؤساء العائلات معي الى جناب الحاكم الفرنساوي ، ولتقولوا له : ان هذه الاراظي ملك فايز الديراني حتى لا يأخذها ، وعندما تنكشف الغيمة ، ويتغير الحال ، يعيد فايز المذكور الاراظي الينا .

وخظعنا يا سادتنا اعظاء الحكومة الموقرة للامر الواقع ، وسلمنا امرنا الى واحد احد ، فرد صمد ، قائلين لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا الى آخر الاية ... وظللنا في اراظينا نتقاسمها مع فايز الديراني الذي كان يأخذ النصف بدون اي حق ، وكان كلما نقصنا عليه مداً واحداً من القمح ، يهددنا بفسخ الاتفاق ، وهكذا كنا نصبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي

العظيم .

وبدون طول سيرة عليكم ، وحفظا لوقتكم الثمين لاننا نعلم انكم تنظرون يومياً ، مئات من العرائض المشابهة لعريظتنا هذه .. صبرنا على هذا الوظع الظالم حتى عهد الاستقلال .

وفي عهد الاستقلال يا سادتنا قمنا بحمل على قدر الحال في ظرب الفرنسويين اعداء الوطن والدين . وهاجمنا الثكنة في (الميادين) بالاشتراك مع اهالي البلد المذكور . وقتلنا جماعة غفيرة منهم وغنمنا من السلاح مقداراً كبيراً .

وعند مجيء فايز الديراني الى ام الربع ، طالبناه بفسخ الاتفاق ، ولكنه يا للعجب ظرب الطمع في رأسه وسبنا وشتمنا وقال انه ليس لاحد منا حق في الارض بتاتاً ، وانه تفضلا منه يبقينا في اراضيه التي يعلم الله ورسوله والناس اجمعون قصته معها ومعنا .

عند ذلك غظبنا غظباً شديداً ما عليه من مزيد ، وظربه المختار وكسر شوكته في نصف المظافة فخرج يهدر كالجاموس ، وفي اليوم التالي ، وفي عهد الاستقلال يا سادتنا ، جاءنا عشرة من الدرك ، فظربونا واهانونا امام حريمنا ، وشتمونا بالفاظ فاحشة مخجلة ، وشدوا الشيخ عثمان من شيبته نحو الارض واشعلوا بلحيته النار حتى اظطر لالقاء نفسه في الساقية لاطفائها ، واخذوا خمسة وعشرين رجلاً منا الى السجن مع اربع نساء احداهن فاطمة العليوي زوجة المختار نفسها .

وماذا نقول لحظرة جنابكم بعد ذلك ؟ وماذا نذكر من

الحوادث التي يشيب لهولها الاطفال الرظع في السنوات السبع التالية ؟ كنا دوماً في اخذ ورد ،وكر وفر مع فايز الديراني المذكور، واسمحوا لنا هنا ، ولا مؤاخذة ، ان نؤكد على تحيز حكام عهد الاستقلال له . كأن الحكومة لم توجد — وحاشاكم — الا لتعين علينا اعداءنا، وتظربنا ،وتسجننا، وتناصر علينا هذا الرجل الذي هبط علينا بلاء من السماء . فوق بلاء القحط وفيظان الفرات .

تحملنا كل شيء كما هو معلوم لدى سعادتكم ، ولكن قبل شهرين طفح الكيل وطرأ شيء جديد مخوف على ارظنا ، فقد سمعنا زعيقاً ذكرنا بايام طيارات الفرنسويين ، ثم رأينا ما لم نكن نصدقه منذ أيام ، رأينا خمسة من الآلات الحديدية الكبيرة التي يسمونها الطراقتورات، والتي نعرف انها تحصد في يوم واحد ما يعجز عنه عشرون فلاحاً في دورة قمر كاملة ، ومزقت هذه الشياطين المرعبة اراضينا كالحيتان الكبيرة .

عند ذلك ، وانتم تعذروننا تماماً يا سادتنا اعظاء الحكومة ، فقدنا صبرنا وعقولنا ، وعرفنا من السوالف والقصص التي جرت في القرى القبلية ، حيث تشرد الفلاحون من هذه الالات . اننا سنهلك نحن ايضاً !! فهجمنا عليها بالبواريد والكرابينات واحرقنا اثنين منها ، وهرب الباقون نحن الميادين .

وبعد ساعتين فقط ، جاءنا جيش كامل من الشرطة والدرك وخلافه، يركبون المصفحات مماذكرنا بعهد الفرنسويين ، وانهالوا علينا بالرصاص. ثم قلّعونا نحو الشرق ، وقتلوا منا سالم عبد ربه

والطفل حميدان الراعي والمرأة صالحة بنت عبد الحق وجرح منا اربعة .

وبتنا تلك الليلة في العراء تحت المطر والبرد الشديد .

ونحن معذورون ، والبادىء اظلم ، في ان نرجع في اليوم الثاني الى القرية ، وكل منا واضع الموت امام عينيه ، وحامل روحه على كفه . فاحتللناها بالقوة ، حيث معلومكم ، كل ما لنا من طعام ومؤن موجود في القرية ، ولا نستطيع ان نموت كالكلاب الجرباء بعيدين عن اراضينا وبيوتنا .

والآن يا اصحاب المعالي ، نحن لانستطيع ان نخرج كل يوم من اراضينا كلما جاءتنا قوة ، لنعود اليها عندما تغادرها ، وقد مات منا الكثيرون ومرض الاطفال والنسوان . وظننا ، وبعض الظن إثم : انكم انتم تتعدون علينا لا فايز الديراني ، واعذرونا يا سادتنا الكرام على هذا التطاول ؛ فقد وصلت ارواحنا الى حلوقنا وبلغ السيل اعلى الجبل .

افيدونا افادكم الله ، انقذونا بحق المصطفى اعانكم الله ، ارفعوا الظلم عنا فقد كدنا نمطس ونموت كالخيل المصابة . اسمعوا استرحامنا واقبلوا عريضتنا بحق جميع الانبياء والرسل والاولياء الصالحين ، انتم لكم اولاد وبنات فاحموا ابناءنا وبناتنا من هذا الرجل الذي لايخاف الله والذي يناكدنا ويعتدي علينا . والله العظيم وحق نبيه الكريم وحق الخلفاء الاربعة الراشدين لم نجن ذنباً واحداً وكلنا مخلصون للاستقلال وقدمنا البراهين على ذلك .

أتريدون ان نموت جميعاً من الجوع والبرد؟ حاشاكم ذلك!! ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء ، لاقوالنا بعقلكم الحصيف الراجح مخرجاً يخرجنا من هذه البلوى ربنا يستركم ويفتح عليكم وينصركم على عداكم ويدخلكم جنان رحمته انه سميع مجيب .

(حاشية) نسينا ان نذكر لكم ان فايز الديراني قــد اعتدى على خديجة الازرق بنت الشيخ محمــد علي، وجعل البنيّة خاسرة بائرة . وقد رمت المسكينة نفسها في الفرات ولاقت وجــه ربها الذي لايظيع عنده الحق .

(حاشية ثانية) سنموت جميعاً قبل ان نخرج من الارض .. امنعوا الطوشة والمذبحــة نحن واثقون بعدالتكم ان لا تتركونا نموت بحق المصطفى المختار .

(حاشية ثالثة من المختار) لم يبق عندنا بذار ، والدرك يمنعونه عنا اراضينا ساكنة مستريحة انجدونا قبل ان يفوت الوقت.

(حاشية رابعة من الجميع) الرجاء من سعادتكم ان لا تُطلِعوا الوزير اسعد الشامي على العريظة والا بدل الحق بالباطل.

(حاشية خاصة من كاتب العريظة سويلم النصر الله) كل ما جاء في هذه العريظة لست مسؤولا عنه وحق النبي ، انه تنقيل من كل اهالي القرية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

في ٢٨ رجب ١٢٧٤ هجرية

ويلي ذلك مئة وتسعون بصماً بالابهام مع خاتم المختار وامضاء سويلم النصر الله .

عـاد المدمن

« أما اذا كنتم يا أهالي ميلوس تنتظرون الخلاص مـــن « السبارطـيين » فإننا نطمئنكم أنهم أكثر من أي شعب آخر يعتبرون مصلحتهم وحدهـــا مقياس العدالة !! وإذا كان اعتقادكم غير ذلك، فإننا نهنئكم عـــلى براءة قلوبكم ، ولكننا لا نحسدكم على جنونكم .. »

[توكيد يدس]
[الكتاب الخامس]



هناك نوع من الحساسين ، صغـــير بحجم قلب طفل ، لاتعرف أشجارنا وجبالنا أروع منه حلة ولا أبهى رونقا . كان حلما من احلام الغصون المثقلات بالجنى والعطـــاء . كان يكفي أن يفتح منقـــاره المذهب ، حتى تصغي البساتين والغابات بغبطة لتسمع الى أول مناغاة من طفلها ، وتصفق الاوراق بخفة وترقص رقصها للواكف المنهمر وتهتف :

ــ انه السكير . . لقد عاد المدن .

وتمد الاذرع الخضراء داعية في ابتهـــال ، ولكن حسون الدنان ــ وهذا اسمه ــ يحط على صديقتـــه الاثيرة ، شجرة الرمان الصغيرة ، ثم يدور حولها رائزا متفحصا حتى يختار احدى أكبر رماناتها ، فيمسك بغصنها ويقصه بلطف وخفـــة ، فتسقط الرمانـــة

الناضجه على الارض اللينة ، فيدحرجها بشغف الى طرف وهدة تخفى على الاعين ، ويروح ينقرها حتى يسيل دمهـــا ، فينصرف مزغردا لحظات يعود بعدها الى كنزه فيمص مـــن جديد السائل الحلو اللذيذ ، ويظل يتابع طيرانه ورشفه حتى يفرغ رمانته مـــن لبها تماماً ، فيتركها في الشمس حتى تيبس .

وعند ذلك تبدأ عملية هذا الخمار المدهشة، ينسى شدوه وشعره وينصرف الى العمل بهمة .. ان عليه الآن ان يمـــلأ هذه الخابية الصغيرة بالعنب والتين، وها هو ذا ينقل اليها ناضج الحب وذائب الشهد .. ويظل يجوب البساتين باحثاً منقباً حتى يملأ دنه ، وعنـد ذلك ينقـــل الى باب الخابية الصغير القش والطـــين حتى يختمه ويرصده ، ويحفر حفرة تتسع للرمانـــة الملآى ويدحرجها حتى تستقر فيهاثم يغطيهابالتراب ويعود من جديد ليملأ خابيةأخرى.

فاذا تمت مؤونته مـــع قدوم الشتاء ضرب بجناحيه الاجواء مغنياً أغنية الوداع ويختفي في الافق سهما صغيرا ملونا لا يعرف أحد اين يذهب ، وتظل خوابيه مدفونة تخمر بهدوء نبيذه الرائع .. وتمر أربعة أشهر حتى تطيّب المدى أولُ ريح دافئة مزهرة . ومن حيث لايدري أحد .. تدنو من الافق عصائب أسهم ملونة قوس قزحية . تنزل بثقة لا حد لها ، وتنبش التراب وتفتح الختم المرصود وتمد مناقيرها بوجل وتذوق نبيذهـــا مرة ومرتين ، ثم تعب منه بفرح .. فيتعتعهـــا السكر وتقفز نحوالاشجار مترنحة مرتجفة الاجنحة، وتفتحمناقيرها المحمرة..وتسمع الطبيعة شعراءها

من جديد يرسلون صلواتهم لأمهم الارض حارسةِ الدنان. وتقول الاوراق لأمها الشجرة بجذل :

ــ لقد عاد السكير .. لقد عاد المدمن .

* * *

تحت السنديانة العجوز ، تعالت أصوات حاقدة هادرة ؛ كان هناك جماعة مــن أصحاب البساتين يرتجفون مــن الغضب وهم يستمعون الى حسون الدنان يصلي في محراب الكون ناشرا الفرح والحب حيثما حــل ، ودنوا من شيخ هادىء مذعور وهم يهزون قبضاتهم :

ــ لقد خرفت ولم تعد الناطور المثالي ؛ ان يديك واهنتان ؛ وقدميك قد دب فيهما الكلال .

ونبز في وجهه ناصب أفخاخ شاب :

ــ ان تلطيــخ الاشجار بالدبق ، ونصب الفخاخ في الحقول طريقة عقيمة وقديمة، لقد أفسد هذا الطائر اللعين البساتين وها هي الارض تمسك عنا خيرها ؛ ان ما يضعه هــذا السكير في التراب يجعل للثمار طعما مرا ، ويميت بذورنا بالتعفن .

كانت الارض تحدجهم بألف عين رمادية.. وكان اعتكارها يجعلهم قلقين .. لا لم تعد أرضهم التي عهدوها .. ان وقع أقدامهم عليهــا يابس ، وكان يسمع من تحتهم تقصف غاضب .. ومن

الشقوق المنتشرة الى ما لا نهايـة ، كان تنفس حار يترك العرق يتصبب من اجسامهم ، هي ذي رئة الارض التي لم تبق صديقة .. وهذا القرع العدو خفقات قلب لايعرف السلام .. لقد لبسوا نعالا سميكة..ولكن التراب يلهبها . وشعروا بأنهم غرباء ، ولمعت في عيونهم بحيرة دم .

وانبرى ملاك آخر :

ــ القتل .. الافناء، هذا هو الحل الوحيد .

وارتجفت السنديانة العجوز مــن فوقهم وهدلت أوراقها في بؤس وتقدم شاب طويل القامة وقال بهدوء :

ــ كفى مهاترات .. لنتحد جميعاً ضد هذا السكّير الوقح ان طريقتنا القديمة في مكافحته منفردين أصبحت غير مجدية وها هو دوما يتكاثر حتى يكاد يسد الافق، والاصح ان نعمل بسرعة، وأرى أن يقودنا دم جديد ، شاب لاتعرف الرحمة الى قلبه سبيلاً .

ــ من تقترح ؟ من تقترح ؟

ورفع الناطور العجوز رأسه وقال بخبث :

ــ لقد عبرت عن رأيك بقوة ، قدنا أنت، أما أنا فقد تعبت.. تعبت حقاً .

وصاح الجميع بقوة :

ــ نعم قدنا أنت .. أنت وحدك القادر على افنائهـم ! !

قال الشاب بنفس الصوت الهادىء :

ــ لا معارضة ؟ أريد ان آمر فأطاع .

ــ لا معارضة لا معارضة .

ــ اذهبوا الى البيوت وأحضروا بنادقكم، وأتوا أيضاً بصفائح البــنزين ، سنحرق قصلات القمح وسيفسد الهشيم المشتعل كل الخوابي ، وسنفتش الأرض شــبرا شبرا بحثا عــن هذه الدنان المسمومة ، ولن يجد هذا النبّاح شيئاً يغني من أجله .

وصاح الجمع وقد هاجته الحماسة :

ــ لن يجد شيئاً يغني من أجله، لن يجد شيئاً يغني من أجله .

ــ سنضع الحرس على كل أشجار الرمان والتين والعنب ، وسيجدنا بانتظاره .

وعلا صياح الجمع المترنح :

ــ سيجدنا بانتظاره، سيجدنا بانتظاره .

وانبعثت من فم القائد تكشيره ماضية ، ولمعت عيناه بنظرة رمادية قاسية وصاح :

ــ لقد أفسدت الحقول والبساتين وهي تسمع مديحها كل يوم من فم هذا العدو التافه ، يجب ان نأتي بمن يمدحنا نحن ، من يغني أمجادنا .

ورفع العجوز رأسه قائلاً بنفس خبثه السابق .

ــ ومن تختار ؟ من يقبل ان يترك الطبيعــة والارض ويغني

بمديخنا .

فقال القائد الجديد بحزم :

ـ ليس هناك سوى البوم والغربان .

وساد وجوم قطعه القائد .

ـ انا اعلم انها لن تعقد صداقة سريعة مـع الارض ولكن العادة تمهد كل شيء ، وعندما لا يسمعون سوى النعيق والنعيب سيظنون انه لا يوجد في الدنيا غيرهما . والآن هيا الى العمل .

ورددت بعض الاصوات بحماسة :

ـ الى العمل .. الى العمل ..

ولكن آخرين انفصلوا عن الجمـع .. وأخذوا وهم مطرقون، ينصرفون الواحدبعد الآخر..انهم من اعماقهموقدرأوا عينالقائد الدامية ، يكرهون القتلة والغوغائية والانقياد ، ويحبون الى حدما صوت حسون الدنان ولو على حساب بعض أرزاقهم ، وكانت عين القائد تخترق ظهورهم محتقرة .

ـ خياليون .. جبناء .. ما بقي يكفي .. أن معنا السلاح ، فلنسرع الي العمل

وذهبوا يتراكضون نحوالبيوت ولم يبق تحت السنديانةالحزينة الصامتة ، سوى الناطور الخاوع الذي نظر الى الجمع المبتعد وهز رأسه بأسى وهمس :

ـ شباب !!

وفي تلك اللحظة سمع صوت حسون الدنان وهو ينشد احدى احلى اناشيده فتأمله الشيخ لحظة بنوع من الكره .

وهمس مرة آخرى :

ـ لن يفلحوا !!

* * *

وبدأ الرعب الاكبر .. واجتـــاح الحقول والبساتين طاعون أصفر، خفتت الاصوات المرحة الشادية، وامتلأت الاجواء الساكنة الحالمة بأصوات الرصاص وصيحات الحقد ، ونكست الازهار تيجانها بذل تاركة لرائحة الحرائق الخانقة تلويث المدى .. وفي الظلام، كنت ترى بريق العيون الحمر الذئبية وهي تتفحص المصائد وتنبش التربة، حتى اذا وقع حسون دنان مسكين ضحية شراكها الغادرة بادرت أيد خبيرة ، فنتف ريشه وكسر منقاره ، وفقأت عيناه، ورمي تحت الاقدام تدوسه في قسوة وجنون . ثم تحفر له حفرة صغيرة يلقى فيها ما تبقى منه وتنطلق العيون الحمر الذئبية الى مصيدة أخرى وقد أسكرها النصر .

وسمعت الغربان وعصائب البوم بدعوة أصحاب البساتـــين وبمأساة الحسون الحمار، فتواردت بأعداد كبيرة، وأخذت تنعق وتنعب ممجدة المذبحة . وأصبحت تواكب الباحثين مبحوحة الحناجر، ممدودة الالسنة ، غدافية الاجنحـــة . وكان أصحاب الارض يصرخون :

ـ هذا هو الغناء الشجي ، هذه هي الاصوات الحقيقية .
وترفع رمانة قديمة رأسها بجهد وقد أثقلها الغم :
ـ يا له من زمن يقف على رأسه .. انه لأسوأ مـــن غزو الجراد .. لقد عشت لارى الغربان والبوم ترفع أصواتها فوق غصوني .
وانتفضت نفضة فتناثرت نصف أوراقها على الارض .
وكانت عصائب البوم والغربان تكثر وتكثر ، وكانت تحط دائماً على السنديانة الضخمة وتملأ الافق بنذرها المشؤومة . وكانت السنديانة من تحتها تحس بنفسها دبيب الفناء ، وهو شعور بدأ يلف الغابات والبساتين جميعهـــا .. ان شيئاً عزيزاً كالنسغ قد اختفى منها .. كان ضميرها معه غائباً ، بينما يقبـــع على أغصانها حثالة الطيور .. والى السنديانة توجه المالكون أيضاً ، كانوا متعبين حتى الانهاك ، وقورين .. في عيونهم شماتة غير مبررة ، وفرح ينطفىء لافتعاله .. وكانوا يعزون أنفسهم بأن الاصوات المعروفة للحساسين قد خفتت ، وكانوا يقولون : من الصحيح ان غناءه لم ينقطع رغم طلقات الرصاص وأصوت الجوقة المنكرة ، ومن الصحيح ان البساتين كانت تنتعش وتتفتح زهورهـا لسماع شاعرها المحبوب ، ولكن طلقة بندقية وغاقا واحدة، كافيتين لاسكات الصوت الجميل ولو الى حين .. ولو الى حين؟ وكانت هذه المدة الزمنية تجعلهم يغصّون، فمن مكان ما في الافق، كان يبزز سهم ملون، وكان يندفع الى الارض حيث يبدأ بالحفر ، وكانت رمانـــة حفظها له قلب الارض البني تتوهج مختومة الارصاد ، وكان يعبّ منـــه وينطلق

منشدا أعذب قصيدة يمكن ان يقولها شاعر ، وعند ذلك كان كل شيء ينصت حتى الغربان والبوم ، وكان المالكون يسدون آذانهم وهم يرون السهم في أعالي الفضاء ، لا تطاله بنادقهم ولا تؤثر فيه شتائمهم فيوقظ الغابـة المريضـة والاشجار المسلولة والازهار الهاجعة ، ويذكي فيها جميعاً حبها القديم المعتق كخمره المعتق .

وكانت الجماعة التي تكره القتلة والغوغائية والانقياد يختبئون في بيوتهم ، لقد قتل احدهم منذ زمن لانه ضبط مستمعا لحسون ينشد. وكانوا يعرفون ان المذبحة ستمتد جذورها اليهم، وان القائد وأتباعه أصبح القتل لديهم غاية ، وانهم اذا لم يجدوا من يقتلونه فقد ترخى البنادق نحو الصدور وتضغط الزناد أيد عصبية لم تغفر لهم ترددهم السابق .. وكانت الارض ترتجف .. وكانت الجبال ترتجف .. وكان الرجال يرتجفون . وكان الصمت يمتد ويزحف أعلى من هدير بحر ، وكان القتلة قد أخذوا يخشون هذا الصمت اكثر من أي شيء آخر، وكانوا يضربون الرصاص في الهواء علّهم يسلّون أنفسهم .. ولكن الارض ما تزال ترسل تشققاتها نسيما حاراً ، وما زالت الضربات تطرق بهدوء وثقة من عمق الاعماق آذانهم .. ان القلب لايزال يخفق ، وكانوا يؤمنون ان سر هـذه الارض لا يمكن ان يكتشف .. انها ما تزال تخبيء شيئا .. شيئا لعينـا لا يمكن التفكير بمدى خطره . وكانوا يقولون لقائدهم بصدق :

ـ لقد فعلت كل ما تستطيـع .. استنفدت كل الحيل ..

رتكبت جميع الجرائم .. ولكن يخيل الينا ان هذا الوطواط المزيل عصي على الفناء .

وكان الناطور العجوز يهز رأسه بأسى :

ـ لقد فعلتم الكثير مما لم يستطع خيالى الكسير ان يحلم به، بله ان يحققه ..

وصمت قليلاً ورفع رأسه فرمقهم بشجاعة وصب نظراته على القائد :

ـ ولكن .. ولكن اذا اتينا الى النتيجة فماذا نرى ؟

خربت الارض وجرجت وتغيرت معالمها، وعصائب غربان وبوم ينفرون الغابات ، واصوات لاتزال ـ على قلتها ـ تبعث في كيانها رعشة الحياة وسحر الوجود .

فرمقه القائد بنظرة ذابلة مستخفة :

ـ ها .. انت الآن تندب الارض المخربة .. انها ارضنا جميعا من اقصى الشمال حتى اقصى الجنوب من البحر الى البحر ، ولست انت اكثر غيرة عليها منا .. ارتح قليلا يا ابتي فقد دب فيك الخرف.

ورفع العجوز رأسه وقال قد جمعت فيه الاهانة ما تبقى في صدره من حمية :

ـ عفواً سأغادر .. لك الارض فدبر الارض .. ولكن اسمح لي ان أقول لك قبل ان أذهب .. لن تفلح .. لن تفلح .. هذا الحسون أصبح جزءاً من الطبيعة ولا يمكن فصله عنها الا بافساد

الجهتين معاً ،وانا أقول رغم كل ادعاء ان ابادته مستحيلة .. كمنع الزهور من نشر الاريج والاشجار من ضوع الثمر .

فأطلق القائد ضحكةمستطيلة مرعبة أرسلت الخوف الى قلوب انصاره حتى لقد ظنوا به الجنون ونبر :

ـ انني أتركك تذهب .. احمد الله ان صدري واسع، ولكن دعنا ، نحن الشباب ، ندبر أمورنا بدون مواويلك الرثة .. لقد تخليت لناعن المهمة وها أنـــتذا تشيع روح الضعف والانهزام في صفوفنا .. اذهب الآن .

فابتعد العجوز تواكبه نظرات القائد المحتقرة ونظرات اتباعه القلقة .. لقد كانالعجوز جزءاً منهم،ولكنه كان الجزء الذيمات ودفن في نفوسهم .

وانبرى شاب ذو نظارتين يقطع الصمت المخيم :

ـ لقد لاحظتان الحسون لاينشد الا عندما يشربمن الخمرة التي زرعها في الارض .. انها الشيء الاساسي الذي يسحر الغابة .. فلنكف عن اطلاق الرصاص ، ولننصرف الى نبش الارض بعناية فاذا لم يجد حسوننا شيئاً يشربه،فلن يكون صوتهالا كصوت غرباننا وبومنا سواء بسواء .

فاهتزت جماعات الغربان والبوم للاهانة ولكنهارفعت نعيقها ونعيبها بذلة وخنوع .

قال القائد موافقا :

ـ لنبدأ الآن .. ليس هناك اي وقت نضيعـه .. لنحرث الارض ، ونقلب الشجر ، فاذا مـا خسرنا بعضه ، فلن يوازي ذلك بأي حال من الاحوال الفوائد التي نجنيها .. واقتلوا كل من يقف في طريقكم من المترددين وتذكروا انها معركة حياة أو موت .. ضعوا مكان قلوبكم أحجارا. لا أريد أيـة شفقة، مطلقاً .. مطلقاً !!

وحُمِلت المشاعل في أعماق الظلمة، وطُعن صدر الارض بالحديد، وجعل عالي التراب سافله ، واقتلعت جذور الاشجار .. وحلق العشب بشفرة مسمومة..ولكن عبثا!! فما من أحد منهم وفق الى ان يجـد رمانة واحـدة ، وكانوا ينتفضون جنونا وهم يشمون رائحتها ، بـين أيديهم وقدامهم ، وخلفهم ، وكانت الكلاب تتشمم وتنبـح ولكن الارض كانت تخبيء دنانهـا ، وبح النعيق والنعيب ، وعادوا منهكين وقد امتدت السنتهم شبقا الى الدم ، وارتجفت أذرعهم بحمى الانتقام ، ولكن اليأس أخذ شيئاً فشيئاً بخناقهم ، ورفعوا أعناقهم نحو السماء يلتمسون الهواء ، ولكـن السماء كانت مغلقة كمدفن في هرم ،ورمى القائد مشعله على الارض ساخطا لاعنا ، فوقع على شجرة يابسة فالتهبت كجثة عتيقة وتعالى الصراخ :

ـ الحريق .. الحريق .. النجدة .. النجدة ..

ولكن الصراخ كان متأخراً، فقد أعدّت الشجرة المحترقـة

أختها ، وارتفعت اذرع اللهيب المشوقة نحو السماء وعدت بين الاشجار مزغردة مقبلة بشفاه ورديه كاوية كل من يقف في طريقها وكان القائد يقول :

ـ ان بساتيننا تحترق .. لقد ضعنا .. لقد ضاع كل شيء سأمزق السماء والارض .. سأقتل .. سأذبح ..

ولكن احدا لم يستمع اليه فقد كانوا يتراكضون كفئران مذعورة، وحوصروا بالنيران من كل جهة، فأخذوا يهربون من بين الفرج ، وسكت النعيق والنعيب دفعة واحدة وغطى السماء فرار اسود ، ولكن اللهيب ظل يستشري مطهرا في طريقه كل شيء، جاعلا البنادق واصحابها هباء . ومن بعيد كان القائد الهارب ينظر الى المسرح المتلظي بأسى وهو يعض اصابعه :

ـ انها لأرض ملعونة منذ الابد..سأذهب الى ارض أخرى. وأسرع مبتعدا وراء الجبال تاركاً أصحابه بجبن .

حتى اذا طلع النهار .. لم يبق في البساتين سوى جثث سود محترقة ، وأشجار تابوتية مرعبة ، وأرض مكفهرة مغطاة بالرماد .. وبدا ان كل شيء قد انتهى الى الفناء ، ولكن هسهسة خفية ساحرة ، أشبه ما تكون بحركة وليد يرعش للشمس كانت تنبعث من قلب الغابة والحقول والبساتين ..حركة خفيفة ولكنها حازمة ومتوقدة بالحياة ، حركة كامنة وراء القشور المحترقة والاوراق المشوهة ، والارض الملطخة .. كان ذلك رئتي الحياة تتنفسان

هواء العافية ، وكان هناك شيء منتظر ، ومن بعيد قدمت البشرى .. دنا سهم يتبعه آخر ثم آخر حتى ملأت الافق ، وحطت حساسين جميلة صغيرة بحجم قلب طفل على الارض المحروقة .. وسار كل منهم بثقة الى مكان يعرفه ثم أزاح طبقة خفيفة من التراب بهدوء وثقة ، ومن بين الخراب والدمار برزت الخوابي والدنان .. لقد أسود منها الغلاف ولكن نبيذها كان يبدو انه اصبح الذ منه في أي وقت آخر ، وأزالوا الأسداد ومدوا مناقيرهم وهم يرتعشون شوقا وحيا ، ثم عبوا منها وضربوا بأجنحتهم الجواء . وانطلق الغناء الرائع .

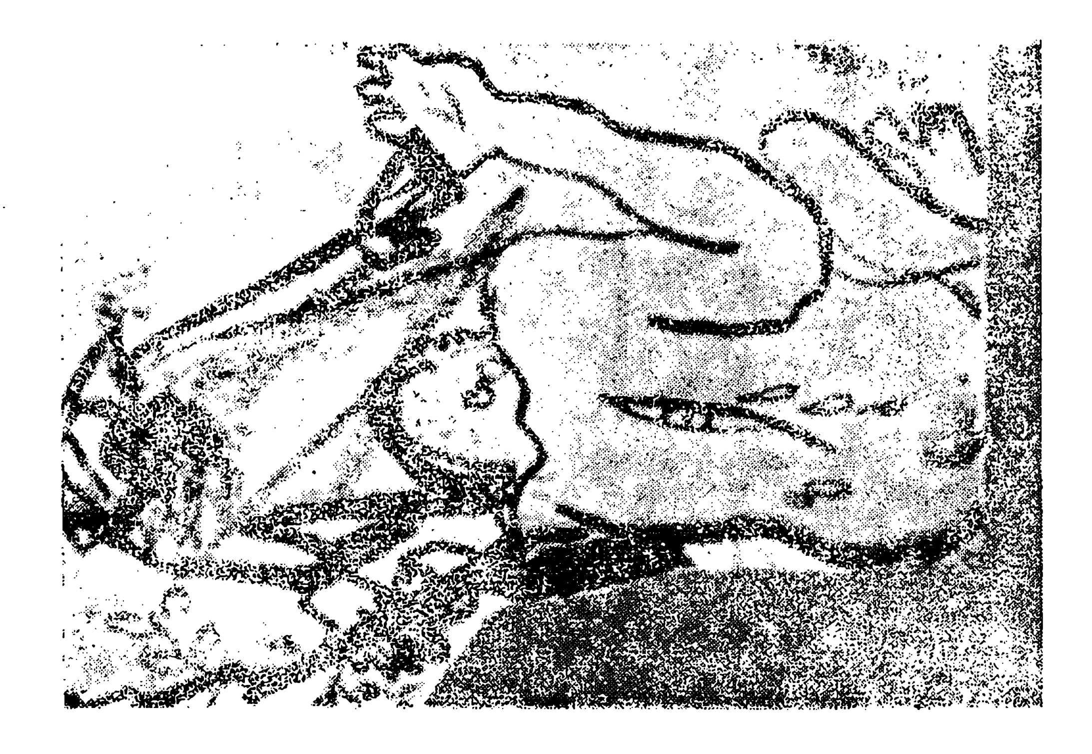
ورفعت أوراق متبقية من الحريق رؤوسها غير مصدقة ، ثم اهتزت مصفقة هازجة لأمها الشجرة .

ـ اسمعي يا أماه .. اصغي جيدا .. لقد عاد المدمن .. لقد عاد السكير .

قيامة ألعازار

اليس هذا هو النجار ابن مريم ؟ وأخا
يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان؟أوليست
أخواته ههنا عندنا ؟
فقال لهم يسوع : « إنه لايكون نبي بلا
كرامة إلا في وطنه ، وبين أقاربه، وفي
بيته »

[انجيل مرقس]



الى رئاسة الشرطة والأمن العام في الحسكة :
يرجى الايعاز لمن يلزم ، لاجراء البحث والتحقيق عن الرقيب الاحتياطي محمــــد بن علي الصغير من أهالي الحسكه ، وابلاغه لزوم حضوره للشعبة فور التبليغ وأخذ وصل بذلك ، وعند عدم العثور عليه يقتضي تنظيم ورقة ضبط عن نتيجة الابحاث عنه والاعادة .

الملازم ...
رئيس شعبة تجنيد الحسكة

(ورقة ضبط)

المحقق : الرقيب الأول فريد فخرو رئيس شرطـــة مخفر الحسكة .

المحرر : الشرطي سليمان سليمان رقم ١٧٣٨
بالساعة الخامسة من هذا اليوم الاثنين الموافق للثلاثين مـن شهر نيسان عـام الف وتسعمئة وسته وخمسين .
نحن الرقيب الأول فريد فخرو رئيس مخفر الحسكة

نثبت مايلي :

بالوقت والتاريخ المحررين أعلاه ، وبناء على كتاب رئيس شعبة تجنيد الحسكة رقم ٥٢٤ تاريخ ٢١ / ٤ / ١٩٥٦ المتضمن تبليغ الرقيب الاحتياطي محمد علي الصغير من أهالي الحسكة .. عليه كلفنا الشرطي سليمان سليمان بالبحث عنه ؛ فعاد الشرطي المو ما إليه وأفاد بأنه لم يعثر عليه في مدينة الحسكة لذلك استحضرنا مختار طائفة الاسلام رمضان بيرخو وسألناه عما إذا كان يعرف الرقيب محمد المذكور أجاب :

أنا مختار طائفة الاسلام رمضان بير خو افيدكم أنني لا أعرفه مطلقاً ، ولا يوجد عندنا بالحسكة من يدعى بهذا الاسم ومن المحتمل ان يكون في القامشلي أو باحدى القرى المجاورة لها : وإذا ظهر خلاف ذلك اكون مسؤولاً عنه وعليه اوقع .

(امضاء)

حرر وختم في مخفر شرطة الحسكة في الوقت والتاريخ المبينتين أعلاه وذيلاً .

في ٣٠ / ٤ / ٩٥٦ رئيس شرطة مخفر الحسكة

(توقيع وختم)

* * *

عندما أراد ان يموت حقا ، ارتسم على وجهه طابع بسيط وجليل وهادىء كشمس ضخمة غاربة .. لم تكن البرودة التي

أخذت تتمشى في مفاصله ،ولا الجهد الذي أخذ يفتح بهأجفانه ، ولا الالتصاق بالأرض الحارة التي لم يألفها بعد ، والتي تشبه الى حد كبير دفء ليلة تموزية في قريته الضائعة بين الزيتون .. النائية .. النائية بصورة لم يعد يتصورها عقله . لم يكن كل هذا ما أنبأه بطريقة لاتقبل الجدل ، بأنه يذوب ويتلاشي كنار تخمد بعد طول اشتعال، بل شعوره الأكيد بأنه انتهى. جسده استمرأ الراحةعلى التراب المحفور بأسنان التراكتور الذي يبدو له شبحاً ميتاً له ظل أسود لزج كلون المازوت . مدد رجليه باستسلام وحركها حركة أخيرة كأنه يستحثهما على النهوض ..هاتان القدمان اللتان ذرعتا الأرض ولم تستقرا لحظة واحدة ، الرجلان اللتان تركتا أثراً في فياف لم يقطعها ابن امرأة .. تنهد عندمـــا لم تطاوعاه ، وأخذ الأسى يعصر قلبه كذبحة دخان رخيص ..لم‌يبق قلبه جيداً كعادته، وأحس بإحساس شجرةعارية اقتطعت جذورها ، والنسغ النابض يتسلل ببطءمن بين عروقها الجريحة التي تحتضر،والأغصان أخذت تتيبس شيئاًفشيئاًوتنسى رائحة التراب وضمة ضلوعه الرطبةالحانية .

كان محمد علي الصغير يموت إذن بجلال .. ككل شيء عميق ، وخطر ، وإنساني . وكان ينتظر، انتظار محكوم بالاعدام عصبت عيناه ، حدوث شيء غير عادي .. وهو كذلك المحكوم أيضاً ، قد فقد القلق تجاه الموت ، وبقي له دافع واحد هو الفضول الذي يواجه به شيئاً يحسه لأول مرة . ولذلك، لم يحقد على الموت، فقد تعود ان يحترم أعداءه !!

درجت قبرة حذرة حواليه ووقفت تهز رأسها وترقبه بعين خائفة . كان الى جانبه رغيف نشف وتفتتت حوافيه .. تقدمت وقلبها في جناحيها استعداداً للطيران، منذ اول سانحة تبدر من هذا الجسد المتمدد ، ولكن محمد علي الصغير لم يحرك ساكناً ، وكلفته ابتسامته بعضاً من الألم .. لقد كان طول عمره صديقا للعصافير .

همس كأنه يرجو أمنيةً أخيرة :

ـ هل أموت قبل ان يجيء مولود ؟

فطارت القبرة مزقزقة بذعر ، ودفعت بجناحيها الأغبرين في اتجاه الريح ،فسقطت من منقاريها هنة الخبز التي نجحت في التقاطها بعد تجربة عدد من الخطط ، وحطت بعيداً على حبة متكورة لم تعقد صداقتها بعد مع الأعماق .

انقدت ذاكرة محمد علي الصغير فجأة !! لو كنت حيا !! لقد أصبحت الحياة بالنسبة اليه ذكرى عتيقـــة ، واختلطت في ذهنه ذكريات كبيرة وصغيرة، ولم يُعنَ مطلقاً بأن يقدم حسابا لأحـد عن حياته وتصرفاته ، لا في هذه الدار ولا في دار أخرى ، بـل عُنِي بأن يموت كلاً لا يتجزأ : كتلةً من اللحم والدم والذكريات والحيوية والعذاب والغربة والحب ، دون أي يبتعد أي منها عن الآخر ، لقد كان محمد علي الصغير دومـــا ذا كبرياء ، وكبرياؤه مستمدّة من كل هذه الأشياء البالغة الأهمية في نظره والتي عايشها طوال خمسة وخمسين عاما ، وهو لن يفقد كبرياءه في اشد لحظاته احتياجا إليه ، أمام عدو بدا له أنـــه ماكر يعرف كيف يحطم

أعداءه ، ولذلك بقي ذهنه متيقظاً : لن اموت إلا وانا محمد علي الصغير .. لن اموت إلا وانا محمد علي الصغير. لن يموت الجسد وحده، والقلب وحده ، والذهن وحده ، ولكن الموت لن يأخذ سوى محمد علي الصغير كما عرفه هو نفسه ، وكما عرفه مولود عزّوزي الذي أبطأ في قدومه حسب الساعة اليومية التي يأتيه فيها بالطعام، في هذا المنقطع من الاراضي التي تمتد حتى الافق، والذي يشق قلبها بشفرة جرّاره ذي الظل والرائحة الحادة المزعجة .

تواردت آلاف الصور على مخيلة محمد بن علي الصغير : تذكّر أماً تلطم خديها ، واختا ترتجف وراء البيت مختبئة حتى لا يراها الجنود ، وتذكر مشيته المتثاقلة المستسلمة المبتعدة .. لقد أسلموه بندقية، وعلموه كيف يضغط على الزناد فيقتل انسانا مثله، وعلموه بعض الكلمات التي يعبر فيها عن غضبه ، وشرب مثلهم النبيذ .

ـ يا مولود عزوزي الا تأتي ؟

لقد ركب دبابة ووجه مدافعها ، وقاد فئة كاملة بين المغاور، يا ألله .. لشد ما شاهد وجوها تبدوله الآن متشابهة قاسية ، ووجوها ضاحكة وباكية ، مبتسمة وغاضبة ، وأحس بالسوط ينهال على ظهره !! لا بأس .. السكّرة تستحق ذلك ، ثم شعر بقدميه تؤلمانه .. لقد سار وسار وسار يقطع الارض العريضة .. ويسعى نحو ...

ـ تشجع يا محمد .. لا تدع الموت يهزمك .

ولكن المـوت ضاق ذرعا بكل هذه المحاولة ، ومنعه إعجابه من الاجهاز على خصمه بوحشية . انطفأت قناديـل الصور أمام عيني محمد على الصغير اليابستـين على ابتسامـة منتصرة ، ولم يحس بيديه ورجليه تختلجان او النسغ يهرب منهما دفعة واحدة .

لقد كان محمـــد علي الصغير ، ذا صداقة وطيدة مع العصافير حقـاً . رجعت القـبرة ومعهـا أخوات تسع ، فنزلن نحو الرغيف دون ان يلقـــين أيـة نظرة حذرة على الجسد المفتوح العينـين . وأخذن ينطنطن حوله مزقزقات ، ولم يستطع محمد علي الصغير ان يفرح ، وان يبتسم . . فقد كان جامداً جمود ُنقرةْ احجار شيخة ، وبدا جسده قطعة غبراء من الارض المحيطة به . . لقد مات بدون مأساة ، وكانت القبرات تعرف انـه انتهى ، ومـع ذلك لم يخفت نشيدها ، لقـــد قابلت موته بذلك الهدوء الذي تقابل به حوادث الطبيعة : كانقطاع شلال ، او تفتت صخرة ، او انهدام عش ، لقد كان تفكيرها كتفكير كل البشر في موت محمد علي الصغير . . تفكيراً أبيض لا لون له ولا ذكريات .

عندمـــا رأى مولود عزوزي القبرات امام الجسد ، ابطأ في مشيته ، وخفتت الاغنية على شفتيه ، ولكنه لم يشعر مطلقاً بحاجة الى البكاء ، اخذ معولاً مـــن الجرار ، واسلم الجسد الهامد الى الارض بعد ان القى عليه نظرة أخيرة ، وقبل ان يهيل التراب عليه ، امسكه وقلبه نحو قلب الارض ، ثم اهال التراب عليه بسرعة ؛ ولم ُيعنَ مولود عزوزي بأن يضع اية إشارة على القبر ، بل مهده بحركة

آلية بلهاء ونثر الطعام نحو القبرات،واشعل سيجارة، ثم تبعه ظلّه واخذ يختفي في الابعاد البيضاء، الخالية من المسرة والحنان والقسوة ايضا ، كبيت لاأطفال فيه .

* * *

الى رئاسة شرطة وامن القامشلي .

يرجى الايعاز لمن يلزم ،لاجراء البحث والتحقيق عن الرقيب الاحتياطي محمد بن علي الصغير ، وذلك وفقا لكتابنا المرفق رقم ٥٢٤ تاريخ ٢١ / ٤ / ٩٥٦

الملازم ...
رئيس شعبة تجنيد الحسكة

(ورقة ضبط)

المحقق : العريف داوود احمد رئيس مخفر شرطة القامشلي بالنيابة
المحرر : الشرطي علي مميليكو رقم ٦٧٠

في هذا اليوم الاحد الواقع في التاسع والعشرين من شهر تموز نحن العريف داوود احمد نثبت ما يلي :

بناء على المذكرة الصادرة من شعبة تجنيد الحسكة والمتضمنة البحث والتحقيق عن الرقيب الاحتياطي محمد علي وعليه كلفنا الشرطي علي مميليكو بالبحث عنه فعاد الشرطي الموما إليه وافاد بأنه لم يعثر على المذكور،فاستحضرنا المختار عبد الرزاق حمود وسألناه

فأجاب :

افيدكم ان الرقيب الاحتياطي المدعو محمد علي الذي تسألوني عنه لااعرفه ،ورغم البحث الذي قمت به لم تمكنت من معرفة احد يعرفه او معرفة محل اقامته فتبين انه غير مقيم بالقامشلي وعليه واشعاراً بالواقع وقعت هذا الضبط تحريراً

المحرر	مختار طائفة الاسلام	رئيس المخفر
(امضاء)	(ختم)	(امضاء)

* * *

عندما عاد مولود عزوزي الى بيتة كان الظلام يغمر الارض، ولم ينس عاداتـــه وهو يدخل ساحة بيته الرحبة : تفقد زهرات الحديقة،وتأكد من حبل البئر إذ شده مرتين ليتبين متانته ودخل حجرة الحبوب ليتيقن مـن ان دلف الماء لم يصب اكياس القمـح الخمسة المسندة الى الجـدار ، وسلم على امرأتـه ، وداعب اولاده الأربعة.. ولكن حركاته كانت آلية ومدروسة لدرجة افقدتها أي طابع انساني ، ورغم انه اكل كمّيته المقررة في الصحن ذاته ، فقد كان اشبه ببقرة تجترّ ما في بطنها بنفس البلادة ونفس الشهية .. ولم يعن مولود عزوزي بأن يأمر الاولاد بإغلاق المذياع رغم ان عدوّه اللدود فريد الاطرش ينوح من خلاله. كل ما كان مولود عزوزي يفعله هو الصمت ، وإنها لعملية صعبة ، بل معقدة .

ــ يا جميلة .. لقد ذهب .. اعني مات .. محمد

ووقفت المرأة دفعة واحدة، وتصلب ظهرها، وسكت الاولاد هنيهة يفكرون بهذا الشيء الجديد الذي طرأ على حياتهم .. من الممكن انهم كانوا يفكرون في الهدايا التي فقدوها، او ببندقية الصيد التي بقيت لهم .. او بكل هذه النفائس الـــتي كان خيالهم الطفل يجسّمها والتي لم يطلعوا على صدقها في صندوق محمد عـلي الصغير القابع في زاوية الغرفة جامداً كصاحبه منذساعات. او لعلهم كانوا يفكرون بشيء آخر .. الصمت عملية معقدة حقاً، ولعله اعقد ما عرفت الارض من احاسيس، ولعله لايعنينا هنا البحث عن صندوق النفائس الذي لا يعرف مخبآته سوى محـــمد علي الصغير ومولود عزوزي. ولعل به بعضا من الصور والخرق والذكريات مرصوف بعضها فوق بعض بشكل ينقصه الذوق الفني .. ان ما يعنينا حقا هنا هو، ان الاولاد كانوا صامتين !! وإذا صمت الاطفال، فمعنى ذلك ان حادثا مهما قد وقع في هذا العالم .

قالت المرأة بصوت أبح :

ـ وتركته هناك يا بو كامل ؟

ـ دفنته هناك .

ـ بدون غسل ؟

فهز كتفيه بازدراء ولعلها اول عاطفة واضحة ظهرت على وجهه .

ـ والصندوق ؟

ـ سارسله الى اهله ولو اضطررت الى ان اسافر الى هنـــاك وابحث عنهم !!

نامت عائلة مولود عزوزي بعد ساعتين من موعد نومها بدون أحلام .. الضوء الباهت يرسل نوره على ست جثث ممدودة كأنها الصندوق القابع في الزاوية، الصندوق الذي يبدو الصدأ أهم مميزاته .. لقد مات اذن محمد علي الصغير بدون نقطة دمع او آهة حزن .. ولكن موته، بكل تأكيد، قد كان مأساة .. قد يشعر بها الصندوق الصدىء الذي إستودعه محمدعلي الصغير أسراره، وقد تشعر بها هذه الجثث الست النائمة بدون غطيط، وقد نشعر بها نحن .. ولكن هل يعنينا ذلك في شيء ؟ !

* * *

الى ضابط الاحوال المدنية بالحسكة .

يرجى الايعاز لمن يلزم لاخراج قيد سائر اسرة الرقيب الاحتياطي محمدعلي الصغير رقم المسكن ٢٣٣٦ والاعادة بالسرعة الممكنة .
رئيس شعبة تجنيد الحسكة

الملازم ...

الى رئيس شعبة تجنيد الحسكة :

مسكن ٢٣٣٦ : محمد الصغير بن علي . والدته : عائشة مولود في الجزائر عام ١٩٠١ تسعمائة وواحد مسلم سوري أعزب قيداً .

أخرجنا قيد نفوس المذكور مع العلم انه مسجل لدينا لوحده وتفضلوا بالاطلاع .
ضابط الاحوال المدنية في الحسكة

(التوقيع)

* * *

عندما حمل البندقية في يده احس انها ثقيلة وتذكر بفخر وحزن انه اصبح رجلاً .. وتصور الفتيات العاريات اللواتي ذكرهن له الضابط :

ـ سنعطيك بندقية وسجاير وطعاماً ، وستنام على سرير بأغطية صوفية ، وسترى بنفسك البنات العاريات في باريس ، وسيكون لك منهن ما تشاء .

والواقــع ان احلاماً شهوانية عنيفة أبعدما تكون عن الحزن ، ارتسمت على وجهه وهو يودع امه وأخته ويضع صرة الطعام تحت ابطه ، وينحدر الى الوادي تاركا وراءه القرية الأليفة الى درجة الألم.

لقــد كان محمد علي الصغير ذكياً ، وكان صوت الضابط كالقدر .. كالموت .. والابتسامة التي جفت على شفتيه وهي تنهي وظيفتها مع صوته ، كانت تعني في ذاكرة محمد علي الصغير جاره رابح وهو يجّر على وجهه ، والدماء التي تتدفق من فمه وانفه تلوث الارض المعشوشبة ، وكانت تعني الحربة التي غرزها سنغالي فتّي في صدر الأم عندما حاولت ان تتشبث به ، ولذلك حرك محمد علي الصغير رأسه الى الأسفل عندما سمع الصوت :

ـ ولكنك ستأتي معنا حتماً .. أليس كذلك يا صغيري ؟

من الجميل ان يحمل الانسان بندقية ، وان لا يكد ولا يتعب في سبيل اللقمة ، كما كان يفعل في القرية ، ومن الجميل ايضا ان ينام مع امرأة شقراء عارية .. عارية حقاً .. عاريــة عرياً مخيفاً .. وان

يأكل حتى الشبع وينام على سرير ابيض،ولا يكلفه ذلك سوى ان يرعب الناس كالسنغال،وان يحرك اصابعه على الزناد فيفرق المجتمعين كما كان يفعل رجال الدرك في قريته في جبال الأوراس .. وسيرسل الى امه واخته كل شهر الهدايا والمال ، وبعد ؟ أليس مجبراً ؟ انها خاتمة المطاف بالنسبة لكل شاب جزائري في الجيش الكبير الموزع في الارض . انه سيرى أشياء كثيرة ، وسيجرب اشياء كثيرة .. كثيرة لدرجة لايدركها خياله .

شد محمد علي الصغير يده على البندقية التي اعطاها له قائد الموقع ، ونظر الى رفاقه وهم ساهمون حيارى :

ــ ما اسمك ايها الشاب ؟

ــ محمد علي الصغير سيدي الجندي في الجيش الفرنسي .

ــ أنت رقم ٢٨١٢٦ يابني ، لا تنس ذلك، علق هذه القطعة من النحاس على معصمك .. هذه هي هويتك !!

* * *

العينان السوداوان المختلط بياضهما بحمرة تحدقان فيه باستمرار .. كل ما فهمه محمد علي الصغير من هذا الاتهام الفاضح المتمثل في بريقهما المطفأ : الدهشة والعتاب . وكان من العبث حقاً ان يدير ظهره عنهما مقلّصاً فكّيه المرتجفين من الفزع ، ومن العبث ايضاً ان يعود الى الجسد الطويل الممدد وان يقلب الوجه نحو الارض

بيديه ليتخلص من الكرتين اللزجتين العاتبتين أبدا !! لان الظّهر انفتح عن ثقب ضخم من اللحم الاحمر النازف .. المكان الذي غرز محمد علي الصغير حربته فيه بنزق ابعدمايكون عن الاحتراف، تمنى لو بصق في العينين ليضيف الى ضميره المثقل جريمة أخرى ، وأخيراً بصق محمد علي الصغير على نفسه .

وجلس الى جانب شجرة.. العويل يرتفع عبر السّهب المحترق تحت لهيب الصيف ،ورفاقه يصرخون كالهنود الحمر الذين رآهم في أحد الأفلام في باريز،وجماعات من السود : نساء وأطفال ورجال يرفعون أيديهم العزلاء يدفعون بها الحراب والرصاص..وأجساد تتهاوى مفتّحة العيون مدهوشة عاتبة يملؤها الذعر .

وتذكر محمد علي الصغير جاره احمد .. وتذكر أمه تتمرغ على الارض وساقاها يضربان الهواء وهي تنظر الى ابنها المساق نظرة أخيرة .. هيه .. وبعد ؟ لقد فعل الآن الشيء نفسه. نظر الى يده وبندقيته العتيقة،والدم واللحم متجمدان على رأس الحربة في خليط مقزّز..ترى أين أمه وأين أخته الآن ؟ ما هي المشاعر التي ستدور في نفسيهما عندما يشاهدان ابنهما وهو يدفن حربته في الظهر.. نعم في الظهر !! لقد أرعبتني عيناه..وكان يبتهل الي الا أقتله ،ولم يكن بيده شيء يدافع به عن نفسه .. ارتمى على قدمي يقبلهما.. والشمس والحرارة الافريقية وصرخات الهنود الحمر .. وخيالات النبيذ الأحمر الدامي كشفاه كرزيّة . يجب ان تفعل شيئاً يا محمد علي الصغير .. يجب ان تفعل شيئاً يا رقم ٢٨١٢٦ ، في يدك

بندقية ، وأمامك رجل لا يقاومك ، والظهر العريض للرجل الساجد أمامك ذلاً يلمع عاريا اسود مختلطاً بالتراب . والضيق بلغ منك غايته ، وكدت تطلب من ضحيتك سيجارة تدخنها بهدوء تحت ظل النخلة ، ولعلعت رصاصة أمام اذنيك فارتفعت اليد !! لعلك كنت ناسيا انك تحمل بهذه اليد بندقية فيها خمس رصاصات .. وفي رأسها حربة تبرق تحت اشعة الشمس ؟ ونزلت اليد في ذعر الى الأعماق .. وتقلص الظهر ، وانفجر الدم من ثقب كبير ، وأحسست بأسنان تغرز في حذائك الجلدي السميك ، ولعل الألم هو الذي جعلك تسحب البندقية من الثقب الاحمر .. وانقلب الجسد على ظهره أمامك ، ونظرت اليك العينان بعجب وعتاب ، لم تريدا ان تنطفآ أبداً . بل ظلتا تلاحقانك كأنهما شدتا اليك شدا بخيط غير منظور . ثم انتهى كل شيء يا محمد علي الصغير ، انتهى كل شيء ايها الجندي رقم ٢٨١٢٦ ، لقد صرت جنديا حقيقيا .. لعلك سألت نفسك لماذا قتلت هذا الاسود المخيف الذي تجمد دمه على ظهره ؟ ورحت تتساءل هاربا من افكارك :

ــ ولماذا يثورون ؟ انها الأوامر .

وضرب محمد علي الصغير رأسه بالنخلة ، وجعله الألم يصرخ ، وتفجر الدمع من عينيه كالدم الذي سال منذ لحظات .. أخذ يبكي ويضرب رأسه بالنخلة بصورة آلية ، واخذت صيحات الهنود الحمر تبتعد وتبتعد عنه ، والرصاص يئز من بعيد فيختنق عبر السهب الواسع ، والجسد الأسود ممدد امامه كصديق لدود . وقف على قدميه

وأدخل الحربة قرابها بهدوء لايفسر . كان الشيء الانساني الوحيد في حركاته هو الدموع .. قال في نفسه :

ــ يجب ان أدفنـــه .

نعم يجب ان تدفن الكافر يا محمد علي الصغير ! . إنك تشعر ان الله راض عن عملك ، وأنت تغطي اللحم الأسود بسعف النخل العريضة .. ثم تمشي باتجاه معاكس لاتجاه أصحابك من الجنود .. إلى الصحراء يا محمد علي الصغير .. اهرب الى الصحراء والعطش والجوع والوحوش وسيوف قبائل الطوارق اللامعة .. وبعد سبعة أيام من الموت البطيء في الهرب، تجد أمامك الوجه الملثم بالمنديل الأزرق ، والعينين السوداوين العميقتين الغــور .

ــ مرحبــاً يا مُسْلِم !!

وتنظر الى القامة النحيلة الصلبة كنخلة، ولم تدرْ بخيالك المقاومة :

ــ مرحبــا .

وبعد دقيقتين تشعر ببندقيتك تؤخذ منك، وأنك تربط بالحبال، وتُحمل على ناقة غبراء وتظل في الأسر عبداً تسعين يوماً وتسعين ليلة .

* * *

تسعون يوماً قضاها محمد علي الصغير بين السيوف المنحنية والقامات المتطاولة النحيفة .. لقد بدا شارداً مهموماً كأنه يكفر عن ذنب عظيم ، لم يشعر مطلقاً بأنه أهين إذ أصبح عبداً . لقد دفعته الحياة

التي عاشها الى النسيان، خدم في العاصمة (تامانراسيت) حيث تبدو الطرقات كالسراديب ، وحيث كان دلاله يجبره على التنكر حتى لايراه الفرنسيون ، رأي كيف تكون الطعنة في القلب ثمن لفظة واحدة ، وكيف يباع الحصان الاصيل بعشرة رجال .. وكيف تبدو الجبال هناك قطعة من القمر ، وحمل الماء مئة ميل عبر (أنصلاح) انصلاح القاسية الحيوانية الرائعة .. أنصلاح الذين يغنون بحنجرة من جمر ، ويموتون في الصحراء جوعاً وعطشاً إذا لم تنفرج شفتا الحبيبة عن ابتسامة .. ويبذلون حتى عباءاتهم ثمن حفنة من الشاي يلوكون بقاياه كغذاء مقدس . وقطع الخشب في واحات (الجوليا) حيث ترمق الافعى الرجال بعيني صديق ، وحيث تكفي لسعة ذبابة زرقاء لتقود الانسان الى الاحلام الجهنمية التي يثيرها النزع .. وأخيراً ، رأي (امينوكال) ملك الطوارق العجيب .. أمينوكال الجميل القاسي الصامت .. حيث تكفي إشارة من رأسه حتى يزحف الطارقي على بطنه العاري ساعتين على الرمال الملتهبة راضياً .. بل انه رأى خالدة زوجة الملك الشهيرة ، التي لا يعدل جمالها إلا قسوتها ، والتي تكحل عيونها المخيفة بمسك الغزال.

تسعون يوماً وتسعون ليلة قضاها محمد علي الصغير بهذا الحلم مفتوح العينين بدون إدراك .. عبد زاده ذراعان قويتان وعضلات مفتولة ، وقدرة على التحمل يبعثها القلب المكفر .. حتى رآه جاويش فرنسي سكير ..

ــ هل أنت هارب ؟

ـ لا .. ولكنني أضعت الطريق فأسرت .

ـ امض معي !!

ويعود الجندي محمد علي الصغير وفي قلبه أشياء كثيرة .. كان طابع الاسى قد حفر وجهه ومسح عينيه بداكن الظلمة، وبدا مستسلما كحمل .. لقد أحس ان شيئاً ما في هذا العالم يلاحقه . شيئاً قاسياً مخيفاً كعيني أمينو كال الحادتين الغادرتين كحربة في الظهر .. كحربة في الظهر ؟ وشعر انه أضاع فرصته ، وان جسده قد غدا اقساماً منفصلة بدون رابط .

لو انه فكر !! ولكن التفكير بدا له عملية متعبة مؤلمة، ولم يكن لقدميه جذور في الارض المالحة الرملية التي يمشي عليها .. لذلك كان محمد علي الصغير ينام جيدا ، ويأكل جيدا ، مستعداً لأن يستعمل بندقيته وحربته جيدا .. وفي قطعته ، حدقت فيه عينان زرقاوان بشك ، ثم ابتسمتا عن اهداب قليلة :

ـ لقد تعذبت كثيراً . . اني أرفعك الى رتبة عريف، وسأطلب الموافقة فيما بعد .. ما هو رقمك ؟

ودهش محمد علي الصغير من نفسه، عندما أفرغ كل ما في رأسه من افكار بقوله :

ـ أنا .. ٢٨١٢٦ سيدي الكابتين !! .

* * *

قال مولود عزوزي يوما لمحمد علي الصغير :

ـ اتعرف؟ انت شخص غريب .. غريب جداً . . لا تشبه احدا

ولم يردّ محمد علي الصغير ، بل كان يتأمل الطريق المعصفر بالشمس .

ـ لقد تعلمت كثيرا من هذه الحياة .. ولعلك رأيت اكثر مما يجب !

وغامت عينا محمد علي الصغير ، ثم برقتا بشعاع بارد عدو .

ـ ولكن انت لاتتعالى علينا .. هه ؟ هل تتعالى ؟

قال محمد علي الصغير فجأة :

ـ يا لك من حمار .. لقد أثرت اشمئزازي اليوم بجلدك هذا السكير المسكين .. حمار آخر من القافلة .

وقفز مولود عزوزي على قدميه ، وبلحظة واحدة كان مستعداً لقتال ضار ، فلم يكن مولود عزوزي بالشخص الجبان :

ـ انت ياحضرة الرقيب .. اظن انه من الممكن ان تأكل بدون اسنان .

ورقص شاربا محمد علي الصغير وهو يقف بغضب ثم قرفص من جديد وكشر :

ـ ولكن هذا لايفيد أحداً .. هيه ؟ تستطيع ان تضرب .. بل ان تجلد .. هاه ؟ ولكن هل تستطيع ان تحس بأن ذلك كله هراء في هراء .. ان شيئا ما يمشي على رأسه ؟ تفه ..

وجلس مولود منفعلاً :

ـ ولكن قل لي .. قل لي .. ما هو الشيء السيء في جلد نذل سكير مثل هذا ؟ لقد كسر قضبان السجن .. و ..

وكان محمد علي الصغير منفعلاً أكثر :

ـ إنه يسكر .. ويسكر .. اتعرفه جيدا ؟ لقد عاش عشرين

عاماً وهو يقتل الناس ،وعندما اخــذ يشعر بأن شيئا ما لا يزال يتحرك بين جنبيه .. قرر : طز في ذلك كله..وجعل يسكر لئلا يموت ما اكتشفه .

ـ انا لا افهم .. وحق الجن لا افهم .

ـ ولكني انا افهم .. انا افهم ...

كان مولود عزوزي يدرك ان زميله بطل .. بطل ؟ انه يشعر بكثافته اكثر من كل رؤسائه ملازمي السرية ، لقد احب لغته التي لا تزال لكنتها الجزائرية بارزة ، واحب وجهه المحروق المليء بندوب الحرب .

وصرخ مولود :

ـ ان كل ماتعلمته جغرافيا..انك تمن علينا بأنك تعرف الهند الصينية وافريقيا .. وتظن انك تفهم الدنيا وتضعها في راسك.. انها في مؤخرتك يا صاحبي .. في مؤخرتك ..

وصمت مولود عزوزي فجأة شاعراً ان كلامه لامعنى له .. ونظر الى بطله نظرة جانبية .. وران سكون طويل عميق .

* * *

لقد تعلم محمد علي الصغير الكثير من الجغرافيا .. لقد رأى الارض مــن السعة بقدر لايخطر له على بال .. رأى القمر المدور البارد المتكبر في اعماق افريقيا السوداء، ورآه بين غابات الكاوتشوك،

ومزارع البن وكتل الجليد وكرهه كالصقيع ،وعقد صداقة خالصة مع الشمس التي تسجدلها الجباه في مكان وتلعنها الالسن في مكان آخر. القرص المحيي المميت.. ملهب الرمال ومدغدغ رؤوس الجبال.

لقد رأى المتناقضات !! غاص في مستنقعات الهند الصينية حتى ركبتيه ، وشرب من مائها المالح المليء بالدود والطين وأوراق الشجر.. حيث تحجب السماء القائظة غابات مظلمة معولة ،ترمقه محاجرها بألف عين وعين ، وانتظر الموت المنقذ من فهد يختل وراء أجمة مشرعاً اسنانه المدببة ، من ضربة صل غاضب ،من لسعة بعوضة منتنة. ولكن لاشيء غير الماء. الماء الرهيب الذي يحمل في قطراته الف مرض، والف مجهول أشد من المرض. الا لعن الماء ما اكثره.. ايمكن ان يكون هناك اكثر من الماء ؟ ولكنه في نفس اللحظة، كان يتذكر انه قال: (ايمكن ان يكون هناك أقل من الماء؟) قالها عندما كان يسير عشرات الأميال في الصحراء.. حيث لانبات إلا الشيح ، ولا ماء سوى ما يجود به ماء البحر البعيد ، في مطل الصباح ، وقدوم المساء ،على المناديل التي ينشرها التائهون في اتجاه المهب .

نعم بإمكان الانسان ان يتعلم الكثير من علم الجغرافيا ..

بإمكانه ان يتوه بين الجليد عدة ليال يضرب بيديه الصخور ليرى الدم الحار وهو ينزف، ليتأكد من ان دماً أحمر لايزال يسري في عروقه .. لازاد له سوى ماتبقى من لحم حصانه الأحمر الذي ترك الثلج فيه بقعاً زرقا منفرة .. نعم بإمكانه ان يتوه ويتوه حتى

يرى البطولة في ان يتمدد ويستسلم للعدو الأليف.. للموت..وإذا به يرى من رأس الهضبة ما يخيل إليه انه بريق .. انه ضوء ..انه مسكن بشر! إنعم .. انه الضوء .. الضوء الحار الدافىء..ويخيل اليه انه يسمع خوار بقرة ، ويري لسان دخان ينساب من تنور مجهول .. يابني البشر .. يابني البشر العزيزين الرائعين .. وبعد ساعات يستنشق حتى الأعماق رائحة الخبز الحار ، وتمسح خديه يدان ناعمتان ، ويبكي كطفل صغير ويشعر ان قريتـــه في الجزائر بعثت من جديد حتى ليشم رائحة ثوب أمه البيتي .

بإمكانه ان يفرط عنـــاقيد بوردو ، ويعصر رمان الشرق ، ويقطف موز افريقيا ، ويعرف ثمرات الغابات المسمومة الجميـــلة الشهيـّه ..بإمكانه ان يشعر بالبهجة لدى رؤيـــة الزهر المتفتح في السهول الواسعة،أو الثلج المكلل رؤوس الجبال الشاهقة،وينتشي لجمال قطيع الغزلان يطير وراء فحله مع الريح وآذانه منتصبة في الهواء.

بإمكانه ان يشعر بالقوة وهو يري الايدي تضرب بالفؤوس في الصخر لتفجـّر نبعاً أو تخرج ذهباً ، وان يفيض قلبـه بالغناء وهو يري صفوف الفلاحين منحنية على الارض لتعطيها وتأخذ منها،وان يحزن لألم الأرض العظيم ، حينما ترفع جراحاتها المتشققة الى السماء مستجدية الصوب المدرار .

نعم لقد أعطت الجغرافيا محمد علي الصغير هذه الفكرة : الحياة رائعة وأروع ما فيها هؤلاء الناس الطيبون .

* * *

قال النقيب الفرنسي بهدوء .

ـ رقيب محمد.. سنذهب الى وطننـــا (وغص بريقه) الى فرنسا .. وستعود الى الجزائر ، لقد انتهينا هنا في سوريا .

وصمت قليلا ثم تابع بابتسامة .

ـانت ترى انها لم تكن بالحياة الهيّنة..اليس كذلك ؟الم تحن الى الوطن ؟ ودون ان يسمع الاجابة أصدر الأمر :

ـ خذ تحت إمرتك سيارات الذخيرة الخمس وسلمها الى الكابتين ستافرو في الرقـة ، يجب ان تكون هناك في الثالثـــة ، وسنزودك بمصفحة حتى لا ينهبك البدو ..

ونظر إلى ساعته :

ـ غادر دير الزور في الثانية عشرة وخذ معك الرقيب مولود وحضيرة . وسأل محمد علي الصغير :

ـ وعند إتمام المهمة؟

ـ ضع نفسك تحت تصرف الكابتين ستافرو ، وسننتقل قريباً الى اللاذقية .

ـ واذا هاجمتنا قطعات سورية ؟

ـ ليس بين الدير والرقة أية قطعات، الحسكة عاصية سنؤدبها ، ويقال ان المناطق الشرقية حتى حدود العراق أنزلت علمنا..وهكذا ترى ان طريقك الغربي مأمون .. اللهم إلا إذا كان بعض الفارّين من الجنود قد تخفوا بين البدو وسدوا طريق حلبّيا.. على كل حال

لست انا من يعلمك كيف تحافظ على قفاك المهترىء .

وانفجر ضاحكاً بصخب، وفكر (انني ديموقراطي)وتابع :

ـ لقد كنت البارحة أقرأ سجلك. محمد علي الصغير ، جندي شجاع وانضباطي ، عنده روح المبادرة ، قائد دبابة ممتاز ، عمل في الفدائيين .. خدم في المستعمرات الفرنسية كلها .. اوه ..اوه أريد ان أعرف من هو ابن القحبة الذي كتب هذا السجل .. يظن المرء انه خلط بينك وبين الجنرال ديغول .

ـ هل هناك شيء آخر سيدي الكابتين ؟

ـ أنت لاتحب المزاح .. هيه ؟

(صمت)

ـ انت تميل الى التأمل والتفكير .. هذا مقلق ياصديقي ، ان مهنتنا متعبة ، ولكنها تريحك من القلق ، أنصحك بإن تصاحب عاهرة صغيرة ، ولكن يا للشيطان لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟

(صمت)

ـ ليس هناك شيء آخر .. اذهب الآن وخذ أمر المهمة من الملازم جان .

كان المطر يهطل بحزن ووداعة . . إنه يعرف تماماً العينين الحزينتين لوجه السماء الكامد، فوراءهما العاصفة، ووراءهما غضب وحقد .. وبدا مفتونا لحظة وهو يوزع حضيرته اثنين لكل سيارة ، وركب هو ومولود في المصفحة وترأسا القافلة .

كان يشعر بوجود مولود الى جانبه شعورا ثقيلا شبه عدائي، وكان يحس بنفسه ينفصل ويبتعد، وقد ساعده صمت مولود العميق على التحرر . حاول ان يصل اليه :

ـ انت لاتبدو مسروراً .. هيه ؟

والتفت اليه مولود .. كان في عينيه بريق غير مألوف .. حاقد ومضطرب وخائف .. ولكنه اعتصم بصمته . وفكر محمد علي الصغير .. ان الحسكة تعكر روتينيته .. وهو يكره كل شيء الآن .. حتى انا .. وأحس بالخفة فجأة ، وبموجات تصعد من معدته الى حلقه ، لقد اعداه حزن السماء العظيم . ودار رأسه .. وبعد ذلك ؟ تفه على كل شيء !! جندي شجاع وانضباطي .. قائد دبابة ممتاز .. عمل في الفدائيين .. انت تميل الى التأمل والتفكير .

وكانت المصفحة تنزلق تحت اذرع المطر برخاوة ونعومة .. وكان يُسمع للعجلات هسيس شبه مغتلم ، وصوت المحرك يغرقه في دوامة رتيبة .. وشعر بدفء وحنان .. وبدأ شريط منسق من الذكريات يصعد من حلقه كأنه شرب كأس عرق صافٍ دفعة واحدة .. شريط حزين متأزم .. عيون السماء حزينة متأزمة ، صوت المحرك حشرجة متأزمة .. مولود عزوزي كتلة حزن حاقدة .. وفتح قلبه .. كان هناك شيء كامد وثقيل ومتنام ككنز بخيل .. جندي شجاع .. انضباطي .. تفه .. وبرزت اليه من حيث لايدري .. من السماء الحزينة .. من حشرجة المحرك .. من معدته المحروقة .. من مولود عزوزي .. من السراب .. من

الذكريات : عينان سوداوان يخالط بياضهما عروق محمرة.. عينان فيهما كل قتامة الخطيئة الأولى وكل انجرارها عبر الدهر .. عينان دهشتان متهمتان .. فتحتهما حتى آخرهما حربة في الظهر ، العينان الزنجيتان اللتان خدمتا عذابه ،وأحس بهما في خدر لذيذ .. خدر المرأة وهي ترى نفسها تحمل وتدغدغ وتغتصب وتفتض وينطلق دم عارها يلوث فخذيها .

جندي شجاع وانضباطي.. جندي شجاع وانضباطي ..لقد قاتل في بقاع الارض.. وأحس بروح الزمالة مع الجنود،وتقاسم معهم الخبز واللحم والذكريات والخمر والنساء . استغرقته كغيره من البشر الملذات اليومية المحدودة ،عرف مأساة ان يكون الطعام والشراب والراحة قيماًمطلقة .. غاية سامية..وأحس بنفسه يخرج من تحت تلال من الخبز واللحم والنساء والخمر جندياً مقاتلاً ذا مراس وشراسة وتجارب .. جنديا شجاعاً .. لقد قتل كثيراً .. والعذاب الاول الذي أحسه عندما نظرت اليه العينان المدهوشتان أخذلا يزعجه من بعد كهياج عنيف .. جندي يميل الى التأمل والتفكير .. كان شيء يتضخم في صدره ، شخص آخر ينمو في داخله .. شخص لئيم حقود يحاسبه ويقرصه كدبوس مدبب.. شخص مزعج يتضخم كسرطان،وكان يكبرويعظم متغذياً ببؤسه ومخازيه .. جندي انضباطي !! وتذكر وجه الكابتين بغضب .. لقد قتل ثلاثة رجال كان عندهم قبل يومين بمثابة ضيف مكرم ، وقبض على اخي فتاة زنجية أسلمته قلبها وجسدهاوقدمه للمشنقة ..

جندي انضباطي .. لقد أحرق مزرعة كان يتذكر عند رؤيتها قريته.. لقدولغت في الدم.. لقد ولغت في الدم. جندي انضباطي يطيع الأوامر.. لقد سخر به النذل.. يطيع الأوامر؟ ياله من عزاء جبان.. لقد أخذنا إرادتك.. وجودك.. عقلك.. شرفك.. محاكمتك وحولناها الى كلمة واحدة: نفّذْ!! وإذا بالآلة تندفع، تحرق، تعذب. يالدقة المدهشة!! ياللبرودة الرائعة!! جندي شجاع وانضباطي.

المحرك المحشرج الرتيب.. ناعورة على الفرات واقفة.. مولود يتطلع أمامه بعناد أعمى.. المطر يبتدىء بالغضب.. عيون السماء الحزينة تخفي عاصفتها بمكر حالم. كم كانت جميلة تلك الناعورة في الجزائر!! أين قرأت قصة ذلك الحصان الهزيل الذي أفقده الدوران بصره؟ لن يحتاج أصحابه بعد الآن الى ان يضعوا على عينية العصابة حتى يخفوا عنه حقيقة هذا الدرب الحازن اللامجدي.. انني أسير الساعات.. إنه يسير الساعات، جاراً معه أنين الناعورة المتعب، والزمن بالنسبة اليه دقاتها الحزينة. ولكنني لم أدرك.. ولكنه أدرك ذات يوم.. الحيوان المسكين.. ادرك انه لم يتزحزح من مكانه خطوة واحدة، وعرف ان المسير الأبدي لديه هو دائرة صغيرة من العالم.. الحيوان المسكين.. الذي خلق لينفخ منخريه في الهواء الحار ويقفز عبر السهب. وثار على مصيره الوضيع فضرب رأسه بوحشية في خشبة الناعورة ففقد عينيه (بدأت السماء تترك مكرها وترسل شرارات حقد من اطراف الشرق) أين قرأت قصة الحيوان؟ أنه

يدور الآن ضمن خياله ،فيرى الظلال والأنهار والزرع الاخضر ، لم يستطع أن يعيش بدون حقيقة فخلق لنفسه حقيقته الخاصة . الحقيقة ؟ ولكن ما هي حقيقتي ؟ ما هي حقيقة مولود عزوزي؟ إنه يكرهني . . لا أعرف لماذا .. ولكن عينيه اللتين كانتا ترسمان مني البطل قد أصيبت نظرتهما بمقتل .

لوظللت في الجزائر !! ولكنه لم يشعر بالأسف .. أرعبه ان يموت في قريته هكذا كأي انسان له رجلان ورأس ولحية صغيرة لاتخرج تأملاته عن حيز الارض والزوجة والطعام. لقدعرف اشياء كثيرة، وابتسم بحزن ، عرف الحزن العظيم،والألم الأكبر ،والحب العارم (اين انت الآن ياليليان ؟) عرف كل ما يميزه عن بهيمة ، وشعر بنفسه يتلاشى في ترقانا ألمه..جندي يميل الى التفكير .. ياله من شوط مميت خطر !!

وتمثل حصان الناعورة وفكر بأسى : لقد عشت طويلا في المغطس ، وبدون حقيقة .وفكر بمولود عزوزي،وللمرة العشرين قرر : انه يكرهني .. الحسكة تغتال طمأنينته.. ورأى وجوهـا سورية اليفة ؛ ومرقت ناعورة اخرى : الجزائر .. سوريـة .. لبنان . ناعورة اخرى كلها معطلة، متى تجد احصنة تدور عليها ؟ يالي من عجوز ، لقد انتهيت .. هل انتهيت ؟ وفار حقد السماء دفعة واحدة ، وفار عزم محمد علي الصغير دفعة واحدة، وفاركره

مولود عزوزي دفعة واحدة ، والتفت الى محمد علي الصغير وسأل بوحشية :

ـ لماذا توقفت ؟

* * *

الى شرطي الشعبة :

للبحث والتحقيق عن الرقيب الاحتياطي محمد الصغير بن علي والدته عائشة .. مولود في الجزائر ٩٠١ بعد اخراج قيد نفوسه، وفي حال العثور عليه جلبه موجودا على نفقته والاعادة بالسرعة الممكنـــة .

رئيس شعبة تجنيد الحسكة

الملازم ...

الى رئيس شعبة تجنيد الحسكة .

وفقا لكتابكم المورخ في ٥ / ١٠ / ٥٦ بحثنا عن الرقيب الاحتياطي المذكور في كل القصبة فلم نجده، ولم نجد احدا يعرفه ولذلك توجهنا نحو رئاسة شرطة وأمن القامشلي بكتاب تاريخه ١٥ / ١٠ / ٥٦ فأعادوا البحث السابق بشأنه فوجدوا شخصاً باسم علي احمد صالح ملاك ارض اخبر حسب التصريح المرفق بأن الرقيب المذكور قد توفي، وانه سمع ذلك من صديقه مولود عزوزي واليـــكم التصريح ربطا وتفضلوا بالاطلاع والأمر بما يجب سيدي .

شرطي شعبة الحسكة

التوقيع

(تصريح)

انا الموقع بذيله ادناه علي احمد صالح جاسم سليان احمد العمر من عشيرة شمر الخرصة فخذ الملحم المقـيم بالقامشلي بيت عباس مذيول محلة المحافظة اصرح لكم بما يلي :

اعرف الرقيب الاحتياطي محمد علي الصغير حق المعرفة ، وقد كان يعمل سائق تراكتور وقد توفي منذ ثمانية اشهر تقريبا في ناحية راس العين ، وقـد دفن هناك ، سمعت ذلك من صديقه مولود عزوزي الذي كان يعمل معـه ، واشعاراً بالواقع اعطيت هـذا التصريح في ١٥ / ١١ / ٩٥٦

المصرح

علي احمد الصالح ...

امضاء

الى مدير ناحية راس العين .

من التحقيق تبين ان الرقيب الاحتياطي محمد بن علي الصغير الجزائري الاصل،والذي كان يشتغل سائق تراكتور في بلدة رأس العين ، قد توفي منذ ثمانية اشهر في رأس العـين ودفن فيها ، لذا يرجى اجراء التحقيق في هذه الناحية وفي اثباتها بحمل احد مخاتير البلدة الذين اشرفوا على دفنه ان يقدموا صك وفاة للشعبة ليصار الى ترقين قيد المذكور والاعادة بالسرعة الممكنة

رئيس الشعبة

الملازم ..

* * *

قال الدركي بصوت بدا غاضبا :

ـ جنابك المدعو مولود عزوزي ؟

ورفع مولود عينين جافتيّن للشمس المحرقة ولعق شفتيه .. ان شيئا ما مــن الافق الرجراج بالسرابات الفضية ، على حدود بيته الواقف على حافة البادية ، يقترب .. شيئا غامضا بلا معنى، وكان يتبخر بفقاعات تافهة نحو وجهه الكنود العابس .

ـ وإذا كنت مولود عزوزي ؟

ـ إذا كنتأو لم تكن.. أهذا جواب ياعباد الله ؟ عوضا عن كرسي وجرعة ماء او قنينة بيرة..اسمع هل انت مولود عزوزي؟

ـ نعم انا المدعو مولود عزوزي .

ـ أخيراً .. أخيراً .. هنا خطنا الجمّال .

وبدأ يبحث عن ورقة في جيبه ، ويخرجها بين أصابع بدت أظافرها قطعة من روث البقر .

ـ هناك قضية لعينة،قضيةتهرّأ نصف نعل حِذائي وأنا أسعى لأخلُص منها..لاأدري لماذايتعبهؤلاء الملازمون ذوو النجمات على اكتافهم..دعنا نحتم من هذا اللهيب تحت الرواق..نعمهكذا أحسن ، هؤلاء الذين يقبضون يومياً مـــا يكفي لأن تسكر شهرا كاملا.لماذا يتعبون أنفسم بالتفتيش عن شخص لاأعرف منهو ، ولايعرف أحد قرعة أبيه من اين ؟ .ما اسمه.. ما اسمه ؟ محمدعلي الصغير ! ! كأنه لاهم لي الا ان أبحث عن شخص ميت، لقد قالوا لي انه فطس ، ولكن ليس هناك من مبرر في العالم ، ولا يرضى الله ولا عباده ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر ولا ذوو النجمات الذي يريحون أقفيتهم الرجراجة على كراسي الدوائر، ان أفطس

معه .. يالها من قصة لعينة .. لاأحد يعرف لاأمه العاهره ولا أباه الساقط .. أتعرف ؟ اريد ان أبول على رأس ...

لاحد يعرفه .. لاحد يعرفـــه !! ولم يشعر مولود عزوزي بالغضب ، بل شعر بأن الفقاعات التافهة تنفجر أمام عينيه ..شيء ما ينكسر في اعمـــاقه ، وها هو صوت الانكسار ناشزاً ومؤلماً في اضلاعـــه ..

ضربة سكين غادرة في القلب ، جبل ينقسم قسمين بصوت لا مدرك كهسيس تساقط الثلج ، ونظر الى الفكين المبللين اللذين يجتران الكلام امامه ، ولم يفكر في ان يدفع قبضته النزقة القويـــة ليغتال هذا الغثاء .. كان يسمع صوت الدركي من بعيد كأنه يشكل اطارا متناقضا مع كل جليل وعظيم .. كصوت ضباع جبانة تنتظر معركة بين نمرين .. تنتظر بصبر عظيم وتحلم باللحم الميت . لاحد يعرفه !! ؟ وبرقت القسمات القاسية امام هدبيه حية فتية ،وانفتح امام اذنه صوت آخر :

ـ كل من يتحرك يموت !! سنذهب الى الحسكة .. هل من اعتراض ؟

وتحرك أحدهم ،وها هي رصاصة محمد علي الصغير تتركه يعلك التراب ، ويسرع الجميع الى مقاودهم ، وتستدير سيارات الذخيرة الخمس نحو الحسكة ، نحو المقاومـة ، نحو معنى الحصان العجوز ، ويضحك محمد علي الصغير احدى ضحكاته النادرة :

ـ في السيارات ما يكفي للمقاومة ثلاثـة اشهر ،سيتغير الموقف

كله في الشمال الشرقي، من يدري.. من يدري ؟ فقد تشتد اعصاب الشام وحماه، لايمكن ان يعلم الانسان اي كنز هوما نحمل.. اعرف طريقا مختصرا. .سنستدير نحو اليمين، راقب السيارات يامولود .. لاتحزن على القتيل .. انني اعرفه، لقد كان في المكتب الثاني ، وقد ارسل جاسم الى السجن .. تعال استلم القيادة .. وظلّ صامتا ارجوك .. اريد ان استريح . لقد ذبحني التعب .

فكا الدركي لايزالان يتحركان ، وما زال الغثاء بدون اغتيال، ومن بعيد كان يرى السراب ، كانت بحيراتـــه كلها عيونا دامعة فرحة، وكانت ايد كثيرة تعانق محمد علي الصغير ومولودعزوزي، وكانواينظرون الى السيارات الخمس الجاثمة تحت الغبار ولا يصدقون.. وكانوا يكشفون الأغطية وهم يفركون عيونهم ، وكانوا يجسّون الرشاشات ومدافع الهاون والقنابل بأيد مرتجفة، اما «السبانوسويزا» فكان قمة المفاجأة ، وكان القائد السوري يبكي :

ـ صرت أومن بالمعجزات.. صرت أومن بالمعجزات .. لقد ولد هذا البلد تحت نجم طيب.. بورك البطن الذي حملك يامحمد.. بورك الأب الذي انشأك يامولود .. ياولديّ .. يا بطليّ .. انتم الوطن لقد انقذتم الوضع كله.. طاب الموت ياجماعة.. هل أهذي؟ نعم انـني اهذي .. لقد نفدت آخـر رصاصة امس .. ياالهي .. يا الهي الرحيم .. اضربوا طلقـة هاون نحو السماء شكرا ليعرفوا اننا لانزال نحيا . . لانزال نتنفس .

وشبك مولود عزوزي يده بعصبية ، ورأى يدي محمد علـي

الصغير ترتجفان على الرشاش بعصبية ، وتتالت الطلقات ، وكان الفرنسيون يموتون بدهشة وذعر،وكانت كل رصاصة تئز كصوت محمد علي الخشن .

لا احد يعرفه .. لا احد يعرفه ..

ـ أرايت ما فعلت يا محمد علي الصغير ؟ لن ينسى لك الوطن ذلك .. لقد ربحنا..ربحنا الكثير ،وسأبعث لك من الشام وساما، وستستقدمك الأركان..سترفع الى ملازم..ستنال مكافأة كبيرة.. اي شيء لاافعله من اجلك ؟ دعـــني اعانقك .. دعني اقبلك .

مرّت قبّرات مزقزقات،محمد علي الصغير يكافح الجوع بهدير محركات التراكتور،لقد اكله إلخبز وهضمه ولم يبق الا ان يلفظه، وها هو يبدو ناحلاً حالما بجبال خضراء.. بأرض بعيدة ..بعيدة تشتعل بالثورة.. وهو يستمع دوما الى آخر الأخبار ويتحرق لأن يجمع ما يمكنه من السفر الى الجزائر..وها هي ذي القبرات تهرب من هدير التراكتور.وها هو المحرك يقف ، وها هي ذي القبرات تقترب نحو الرجل الممدد لتشاركه العشاء الرباني.. يا له من رجل شهير !! يا له من رجل بطل !! هه .. القبرات لاتطير بل تقفزنحو الرجل الممدد ، لقد وقفت خفقات قلب الآلة ، وتتهادى واحدة نحو رأسة في وقار ، وتفتح منقارها وتبكي للدم المطلول لم يؤخذ بثأره .. انه شهير .. شهير !! حتى الطيور كانت تعرفه !!

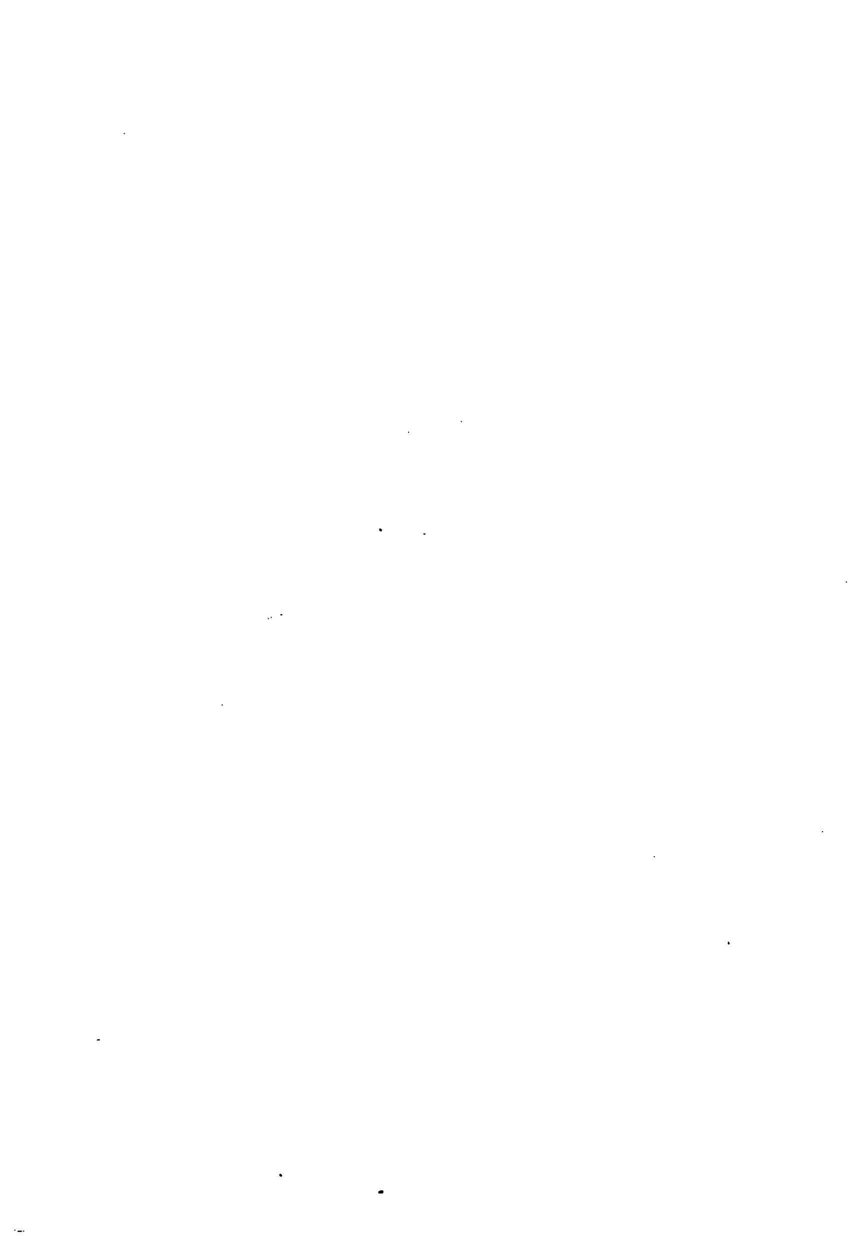
ـ يا له من حر !! أعوذ بالله من حر جهنم ، ومع ذلك،حينما يكون عباد الله في بيوتهم ، يدغدغون سيقان نسائهم ، يأتيك امر قراقوشي : ابحث عن فلان .. اسأل عن علان .. وتدور اربعة

أركان البلد ، لاهثـا مثل كلب أجرب ، تلوب على ابن عـاهرة اسمه كذا ، فيتبين لك ان الافندي قد فطس . ماذا بك يامولود ؟ هل تحس بمرض ؟ قل لي اخيرا : هـل مات محمد علي الصغير ؟

فتهاوي مولود الى جانب الدركي نحو الظـل ، وجلس مكوماً على الارض .. صغيراً .. ضائعاً .. خائفاً :

ــ نعم ياسيدي لقد مات محمـد علي الصغير ، مات منذ زمن طويل .. بعيد .. هل قيل لك : انه ليس معروفا من احد ؟ومع ذلك فقد اشترك في دفنـه اناس كثيرون .. كثيرون جداً .. هل معك سيجارة يا سيدي ؟

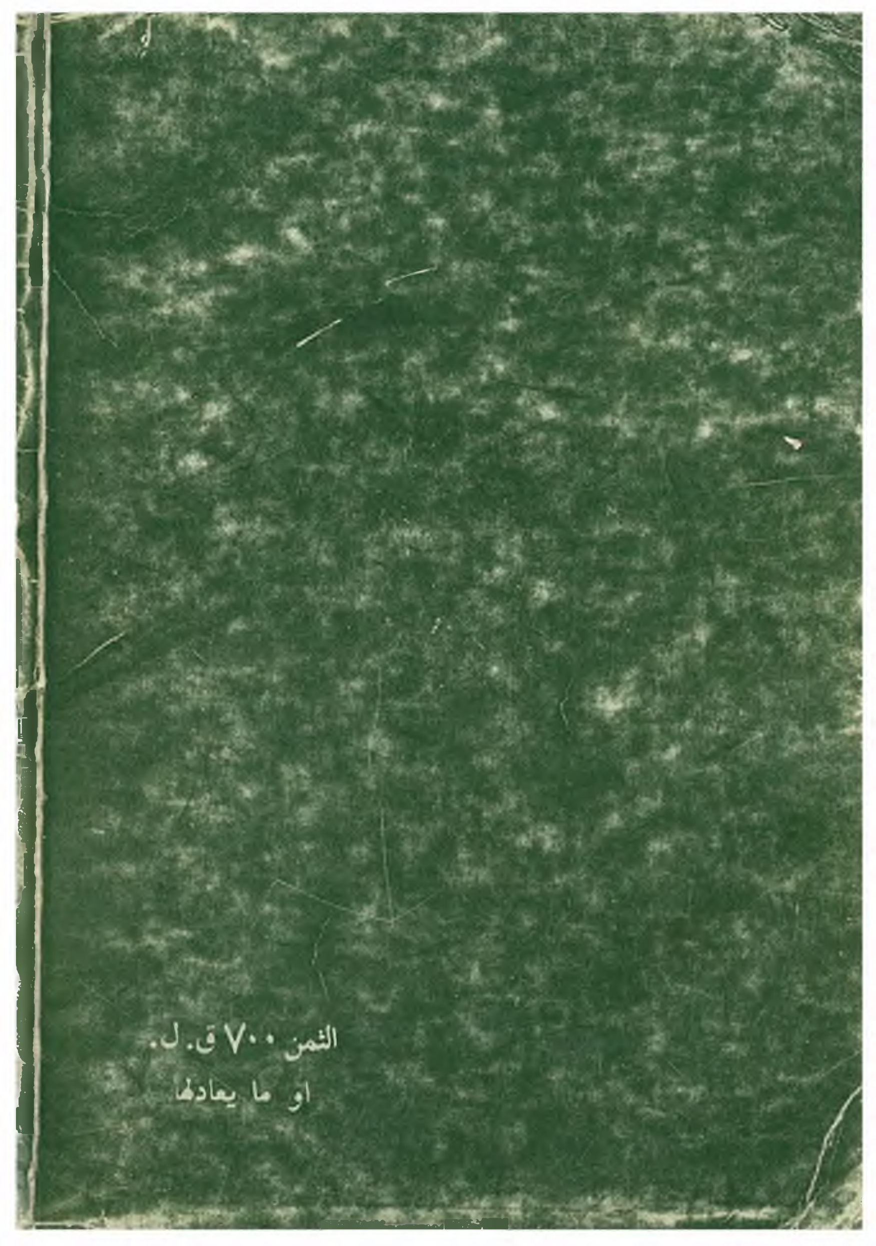




فهرس



طبع على مطابع «امبريمتو» بيروت – لبنان


الثمن ٧٠٠ ق. ل.
او ما يعادلها